

كتاب الدوحة

فتاوى

كبار الكتّاب والأدباء

في

مستقبل اللغة العربية

نهضة الشرق العربي وموقفه

إزاء المدنيّة الغربيّة

توطئة: سعيد بنكراد

فتاوى
كبار الكُتّاب والأدباء

1- مستقبل اللغة العربيّة

2- نهضة الشرق العربي وموقفه إزاء المدنيّة الغربيّة

تقديم: سعيد بنكراد

كتاب الدوحة 30

يوزع مجاناً مع العدد 74 من مجلة الدوحة ديسمبر 2013

فتاوى
كبار الكُتّاب والأدباء

1- مستقبل اللغة العربيّة

2- نهضة الشرق العربي وموقفه إزاء المدنيّة الغربيّة

الناشر :

وزارة الثقافة والفنون والتراث - دولة قطر

رقم الإيداع بدار الكتب القطرية :

الترقيم الدولي (ردمك) :

إخراج وتنفيذ : القسم الفني - مجلة الدوحة

لوحة الغلاف : الفنان علي حسن - قطر

فهرس الكتاب



توطئة

بين يدي القارئ كتاب عن اللغة والتمدُّن عامّة، وعن حال اللغة العربية في العشرينيات من القرن الماضي تحديداً. كتاب تحدَّث فيه مجموعة من كبار الأدباء والنقّاد والمفكِّرين من مشارب متنوعة، عن قدرة اللغة العربية أو عجزها على الاستجابة لتحدِّيات العصر العلمية والفكرية عموماً، وتحدّثوا عن قدرتها على التقاط التحوُّلات التي لحقت نمط العيش، وما أفرزته من حاجات جديدة في السياسة والاجتماع وأشياء المحيط وانفعالات النفس، فقد تصبح الموضوعات التي ألفتها العين بفعل تعدُّد التسميات وتنوُّعها أو غيابها غريبة في الوجدان، ذلك أن وقع الاسم أقوى دائماً في الوعي من خطاطات الشيء في الذاكرة.

وهو أمر تؤكِّده حياة اللغة ذاتها، فقيمة الكلام الإنساني ليست مودعة في موروث قدسي ثابت لا ينال منه الزمن، رغم أهمية هذا الموروث في بناء الهويّة وغناها، بل يجب تلمُّسها في قدرة هذا الكلام على تجديد النظر والفكر داخله، وفي قدرته على تغطية ما يتمّ اكتشافه من مناطق وأشياء في الذات وفي الوجود؛ ذلك أن طبيعة المدنية الحديثة لا تدعو إلى «تحصين» الذات بما يُفتي بانزوائها داخل زمنية تتحرَّك خارج التاريخ الكوني، بل تقتضي تأهيلها بما يمكِّنها من استيعاب ما يأتيها من خارجها استناداً إلى ممكنات لغتها وخصوصية ما أنتجته من

إرث حضاري داخلها.

وتحدَّثوا أيضاً عن علاقة الفصيح بالدارج، فهناك خطر يمثِّله «التلهيج» المتزايد للحياة العامة والحياة الخاصة. ولن يقود هذا التلهيج، في عرف الكثيرين من هؤلاء، وفي عرف نظرائهم المعاصرين أيضاً، إلا إلى التقليص من الطاقة التعبيرية التي تتوافر عليها اللغة العربية في طابعها الأدبي الراقي، أو إلى التشويش على المعاجم العلمية المتخصِّصة باعتبارها لغة خاصة بالعلماء ولا دخل «للشعب» فيها؛ فهذه اللهجات لم تكن في كل الحالات تعبيراً عن ميل «اقتصادي» تقتضيه ديناميكية الممارسة الحياتية (بلورة ما أُطلِق عليه قديماً وحديثاً «اللغة الثالثة»)، بل هو إفراز من إفرازات احتكاك المواطن العربي بلغات أخرى ضمن شروط تبعية ثقافية صريحة أو ضمنية، أو هو في الغالب الأعمّ حاصل انتشار الأمية وتفشّيها في أوساط الشعب.

وعلى الرغم من تنوُّع الوصفات التي قدَّمها هؤلاء وتباينها واختلافها في الشكل، بل وفي الجوهر أحياناً، فإن «الهويّة» وحمايتها من الوافد (الصديق أو العدو) ظلَّت هي الأساس الذي تُقاس عليه مصداقيّة وجدّيّة ما يمكن اقتراحه من حلول يجب أن تَصبّ جميعها في اتجاه العودة بالعربية إلى موقعها كما كانت أداة للتعبير عن أهواء النفس، وأداة للتفكير وتدبير الشأن اليومي، بل يجب أن تظلّ أداة صلة بين حاضر متجدِّد باستمرار وبين ماضٍ لا يمكن تحديد موقع الذات في المعيش المعاصر وحركتها فيه إلاّ من خلال استحضار ما يوجد في الخلف من الذاكرة الجمعية، بكل مظاهر السلب أو الإيجاب فيها. ذلك أن تهميش العربية والنيل منها ومن تراثها لن يقود في نهاية الأمر إلا إلى القضاء على حضارة بأكملها.

والحاصل من كل ذلك، أن هناك ما يشبه الإجماع في الماضي والحاضر، رغم اختلاف شروط «النظر» وتطوّرها، على تراجع العربية في كل الاستعمالات وتخلّيها عن مواقعها في الحياة العامّة، لقد خرجت، أو أُخرِجت، من الشارع والمنزل والحوار اليومي، وتخلَّت عن دورها في تدبير قطاعات المال والأعمال والتربية والتعليم، بل أصبحت هامشية في قطاعات مركزية كالإعلام المرئي. هناك موازين قوى جديدة أفرزها تخلُّف الأقطار العربية اقتصادياً وسياسياً، كما ساهمت فيها حالات التمازج والتداخل بين الشعوب والثقافات، وأفرزها الإيقاع الجديد للحياة الذي جاء به الغزو الأجنبي قديماً، وعملت على توسيعه ونشره الوسائط الجديدة حديثاً. وقد حَدَّت هذه الوسائط، في واقع الأمر، من سلطان كل اللغات؛ فكلما ازداد نفوذها تراجع دور اللغة لصالح تواصل «تخطيطي» يكتفي «برسم» العواطف دون التعبير عنها.

فقد تكون اللغة العربية، في مطلق الأحكام الأدبية والعلمية، مالكة لكل المقومات التي تجعلها قادرة على إنتاج المعرفة وتداولها، فلا شيء فيها وفي الواقع يمكن أن يحدّ من قدرتها على ولوج عالم المعرفة والاستئناس بمصطلحاته ومفاهيمه. إن موروثها الفلسفي والأدبي والعلمي واسع جداً، وإمكاناتها كبيرة في تغطية كل مناطق الوجود الإنساني والطبيعي، وهي ليست لغة معيش يومي يشكو من خصاص في المفاهيم، كما أنها ليست لغة شفهية تحتفي بالانفعال أكثر من احتفائها بالتحليل المنطقي. ففي تراثها المكتوب من «العتاد المفهومي والمصطلحي» ما يمكِّنها من استيعاب معطيات العلم الحديث في كل فروعه. وهو أمر يؤكِّده حوارها الذي لم ينقطع أبداً مع كل اللغات، ويؤكِّده أيضاً الانتقال السلس للكثير من المفاهيم العلمية الحديثة إلى معجمها واستيطانه ذاكرتها. بل إن كثيراً من مفاهيم العلوم الحديثة

مستعارة من العربية نفسها.

ومع ذلك، فإن واقع الحال فيها يكشف، من بداية الغزو الخارجي إلى عصر العولمة والتكنولوجيات الحديثة، عن الكثير من القصور في قدرتها العلمية وفعّاليتها في التواصل اليومي والإعلامي، على حَدّ سواء، بسبب شدة منافسة اللغات «القوية» (القويّة اقتصاديّاً وسياسيّاً لا ذاتياً)، ونتيجة انتشار مجموعة من اللهجات «الهجينة» التي حَدَّت من طاقتها على الابتكار. بل إن الوتيرة السريعة للتطوُّر العلمي الذي يعرفه العالم الحديث قد تَهدَّدَها بالكثير من المخاطر، لعل أبسطها احتمال تخلّيها النهائي عن موقعها كأداة طبيعية لإنتاج المعرفة وتداولها، واكتفاؤها بدور الحافظ «لهويّة تاريخية» لا نستحضرها إلا في الأمداح وحفلات التأبين والحديث عن مآثر الموتى. وهو أمر نعاين بعض مظاهره في سياسة بعض الدول العربية التي تحرص على فصل المعاهد والمؤسَّسات الخاصة الموجَّهة لتلقين العلوم الحديثة بلغات أجنبية (فرنسية، إنجليزية)، عن مؤسَّسات عمومية تحمي «أصالة» البلد، وتحافظ على قيمه الروحية.

لا يتعلَّق الأمر بطبيعة الحال، بقصور ذاتي، كما يروِّج لذلك المعادون لها في الكثير من الحالات، هؤلاء الذين يسميهم جبران خليل جبران في هذا الكتاب «سفراء الدول التي يتكلَّمون لغاتها»، بل هو حاصل إقصاء قصدي بحكم الهيمنة الاستعمارية قديماً، أو بحكم النفوذ الثقافي والاقتصادي الأجنبي، أو هو حاصل حالات «اللهاث» وراء «نماذج حضارية» «جاهزة» لا تكلِّف مؤسَّسات الدولة الكثير من المال والجهد والطاقات البشرية. فيكفي أن نستورد «الوصفات» التامة، فيما يشبه «التمائم» والتعويذات» بلغاتها الأصلية لكي نحلّ معضلة النموّ الاقتصادي والتقني، وننتشي باستنبات هجين لمظاهر التحديث في

حياتنا. والحال أن ما لا يدركه الكثيرون، أو يتجاهلونه عن قصد، أن ما سيوضع للتداول في هذه الحالة هو مجموعة من الآلات الباردة التي يمكن التخلُّص منها دون أن يختلّ وجود الحامل لها، أو يتغيَّر وضعه الحضاري.

قد يكون لانخراطنا في العولمة وطبيعة الميكانيزمات الجديدة التي أفرزها التبادل الاقتصادي والفكري نصيب في تراجع موقع العربية في الحياة العامة والحياة الخاصة، وتخلّيها عن دورها في تسيير دواليب الدولة الإدارية والاقتصادية. إلا أن الأمر أعمق من ذلك فيما يبدو، فالزمنية الحضارية غير الزمن الكوسمولوجي، فما بين تلك وهذا التاريخ، والدين، والحضارة. لقد داهمتنا المدنية الحديثة على حين غرّة، ولم يكن هناك في محيطنا المادي والروحي ما يحمينا من «صدمة» التحديث القسري والفوري والمباشر، فكل ما أنجزناه أو تبنَّيناه لم يكن حصيلة تطوُّر داخلي، موضوعي ومستقلّ يجيب عن أسئلة هي من صلب تراثنا بأبعاده الثقافية واللغوية، بل جاءنا من فوق، فيما يشبه القدر الذي لا يمكن ردُّه. يتعلَّق الأمر بمعادلة مختلّة في أصلها، ولا يمكن للغة والثقافة أن تنجُوَا من تبعاتها.

إنها صيغة أخرى للقول إن استيعاب مظاهر التحديث تَمَّ ضمن بنيات اجتماعية تقليدية حافظت على «موروثها» القيمي عبر صبه في قوالب جديدة تُطمئِن الذات، وتريح الغربي في الوقت ذاته. فـ «القَبَلي» و«الجهوي» و«الإثني» و«العرقي» وما شابهها من التصنيفات، هي التي ظلَّت تتحكَّم في الذهنية التي تستورد المنتج «العصري»، وتُصَرِّفه بلغته وفق ما يخدم الديمومة التقليدية، ويحافظ على جوهرها، ويُجَمِّل الظاهر في الوقت ذاته. وهو ما يعني أننا لم نستبدل باللسان العربي لساناً آخر يفصلنا بالمطلق عن موروثنا الحضاري، ويدفعنا إلى تبنّي أنموذج

حضاري آخر، فهذا أمر لم يقع ولن يقع، لأنه في الغالب منافٍ لمنطق التطوُّر التاريخي نفسه، بل قادنا إلى الدفع بالعربية خارج المحيط، وإقصائها- تبعاً لذلك- من الحضور الفعّال في عملية تدبير المجالات السياسية والاقتصادية والإدارية، مع المحافظة عليها في الاعتناء بشؤون القطاعات التقليدية ذات الأهمية المحدودة.

لذلك لا يتعلَّق الأمر، في الحالتين معاً: حالة القصور والعجز عن مواكبة إيقاع التمدُّن المتسارع للكون، وحالة النكوص والانكفاء على الذات والاحتماء بالماضي فيما يشبه «البيات» الأبدي، أو الانغماس المتزايد في دينامية حسّيّة تكتفي بالتقاط اللحظة الاستهلاكية كما تَمْثُل أمام الذات، (لا يتعلَّق) بتقلُّص في عدد التسميات أو تدنّي مستوى السجلّات التعبيرية والإحالات المفهومية المباشرة، فذلك لا يشكِّل سوى «قطعة الجليد» التي تطفو على سطح البحر، أما جوهر المسألة، في تصوُّر المتأمِّل للسرّ اللغوي في كلّيّته، أي النظر إلى اللغة من زاوية موقعها في الكينونة والوعي، فيتعلَّق بتهديد حقيقي للذات، بما هي في المقام الأول نتاج «نظام لغوي» لا يتحكَّم في المخزون اللفظي وكمّيته، أو في عدد التسميات بالزيادة والنقصان فحسب، بل يتحكَّم في حضور الإنسان داخل المعنى وداخل كل التنويعات الدلالية التي تُغْني هذا الحضور، وتمنحه تلوينه الثقافي الخاص.

إن الموقف في هذه الحالة يقتضي منا ألاّ نتعامل مع اللغة باعتبارها «أداة» محايدة تقوم بوظيفتها ضمن تجربة إنسانية خرساء ممتدّة في الطبيعة لا في الوعي الذي يلتقطها؛ فالأمر في هذه الحالة يوحي بإمكانية استبدال لسان بلسان آخر في انفصال كلّي عن المكوّنات الثقافية للذات وطريقة حضورها في الوجود. كما يقتضي أيضاً ألاّ نتعامل معها باعتبارها جزءاً من تجربة «روحية» يغطّي القدسي الثابت

فيها على النفعي العارض في الحياة : «ما يقوله الرافعي في هذا الكتاب عن العربية: نقول عن مستقبل العربية أن الماضي كان مستقبلاً قبل أن يكون ماضياً... والتاريخ في الحقيقة كأنه ينبت من القبور حيث دُفِنت القرائح والأفكار والأصول الإنسانية التي يرث منها الخلق، وهذه اللغة تمتاز على اللغات كافة بارتباطها إلى الأصلين الخالدين القرآن والحديث. وهما على وجه واحد أوَّل الدهر وآخر الدهر».

ففي الحالتين معاً، يتمّ التعامل مع البعد اللساني في التجربة الإنسانية كما يتمّ التعامل مع كل الأبعاد الأخرى، فاللغة إما أداة موجَّهة لتحقيق النفعي في الحياة، أو مَنْفذ نحو عالم روحي يتحقَّق في الآخرة. والحال أن أمر اللغة من طبيعة أخرى، إن تاريخ الإنسان هو تاريخ اللغة ذاتها، فالحجم الإنساني مودَع فيها لا في محيطه الصامت. فلا شيء واضحاً قبل ظهور اللسان، ولا شيء يمكن أن تستوعبه الذاكرة خارج العلامات، فهي الشكل الرمزي الوحيد القابل للتداول. لقد استعمل الإنسان اللغة لتلبية حاجات داخلية. هذا أمر بديهي، ولكن هذه الحاجات لم تكن سوى تعبير عن القوة الواعية المندفعة إلى الخارج رغبة في التجسُّد في موضوع من موضوعات العالم به يوجد الوعي ومن خلاله تكتسب الأشياء محدِّدات إضافية، إنها خاصّيّة كل اللغات.

وهذا معناه أن اللغة هي مثوى الوجود أو هي «بيت الكينونة» (هايدغر)، فلا يمكن تلمُّس طريقنا إلا على هدى منها. وفي جميع الحالات، فإن «معرفة الإنسان شرط لمعرفة خطابه، ومعرفة الخطاب شرط لمعرفة الإنسان» (شلايرماخر)، يتعلَّق الأمر بحلقة هرموسية دائمة تتناسل داخلها أسئلة الإنسان وأجوبته وغاياته، من اللغة إلى الوجود، ومن الوجود إلى اللغة. فالإنسان لا يتحرَّك ضمن زمنية كلّيّة بلا حدود ولا ضفاف، بل يتطوَّر داخل لغة هي الشاهد الوحيد على وجوده داخل

المعنى ومن خلاله ينتمي إلى ثقافة يجب أن تتميَّز، بالضرورة وبطبيعة اللغة التي أنتجتها، عن غيرها من الثقافات.

ذلك أن لكلّ ثقافة طريقتها في تقطيع المضامين وتسريبها إلى ممارسة تتمّ ضمن «الهنا» و«الآن» وتقوم بها «أنا» مخصوصة. فقد يكون بإمكاننا، في جميع الحالات، استيراد ما نشاء من المنتجات الصناعية، ولكننا لن نستطيع أبداً، أو في حالات نادرة فقط، استيراد «روح أمة» و«عبقريَّتها»، فَسِرّ هذه الروح مودَع في اللغة؛ فهي الجوهر وواجهة التجلّي الخارجي، وهي مستودع المعارف، وهي شكل الحضور الثقافي في الوقت ذاته. إن ما يتسرَّب إلى الذاكرة من خلال اللغة ليس «كما» من الكلمات، بل هو صور رمزية، وطريقة في الوجود وفي تشكّل الأشياء في وجداننا.

بعبارة أخرى، إن مصدر تمثُّلاتنا للكون هو اللغة ذاتها ولا شيء سواها؛ لذلك لا يمكن للإنسان أن يكون شيئا آخر غير ما يأتيه من هذه التمثُّلات (هامبولت)، فما تختزنه الذاكرة هو «أشكال رمزية» (كاسيرير) هي وحدها ما يمكِّننا من التواصل مع محيطنا الثقافي المباشر، وهي أيضاً ما يمدّ جسوراً بيننا وبين من ينتمون إلى ثقافات أخرى(الحالة التي تمثِّلها الترجمات). إننا لا نتعلَّم لغة لكي نسمّي أشياء في العالم، إننا نفعل ذلك، في المقام الأول، لكي نتعلَّم التفكير من خلال أصوات هي السبيل الوحيد للتعرُّف بالعالم وتحويله إلى رموز مستقلّة بذاتها.

وهي صيغة أخرى للقول إن شروط التوافق بين الإنسان والوجود مودَعة بشكل سابق في لغته. فاللغة هي التي تحدِّد الطبيعة الدلالية والثقافية للموجودات، بما فيها حالات العدد، والنوع، والتميز بين الألوان، فوحدة «المادة» لا يمكن أن تقود إلى تشكيل كوني يوحِّد

بين الرؤى المودَعة في دلالات الشيء لا في استعمالاته الممكنة. لقد نُظِر إلى الدلالة دائماً باعتبارها «حلّاً للتناقض القائم بين الإنسان الطبيعي والإنسان الثقافي» (بارث). فنحن نُذَكِّر أشياء تُؤنثها لغات أخرى، ونُؤنث ما تُذَكِّره هذه اللغات، نقوم بذلك ضمن ممكنات طبيعة مشتركة، ولكن ذلك يتمّ دائماً استناداً إلى عوالم ثقافية مخصوصة.

لا يتعلَّق الأمر، في جميع هذه الحالات، بتحديدات لسانية بسيطة مرئية في الكتابة والنطق، بل يتعلَّق ببلورة رؤية، أو رؤى، للإنسان وللوجود هي ما يُسند الأحكام الاجتماعية والحضارية الخاصة بالتمييزات بين المذكَّر والمؤنَّث ضمن هذه الثقافة أو تلك. ويكفي أن نشير إلى أن عوالم المؤنَّث، كما يحدِّدها لسان العرب، دالّة على الضعف والليونة والهشاشة في كلّ السياقات، في حين يرتبط المذكَّر بالقوة والعنف والشدّة في كل السياقات أيضاً. فالمحراث يشق الأرض شقّاً، لأنه مذكر، والحاصدة تلتقط السنابل في السطح لأنها من صنف المؤنَّث.

وهذا يؤكِّد بعداً آخر في الوجود اللساني للإنسان، يتعلَّق الأمر بالترابطات الممكنة بين الجسد واللغة، فلا يمكن فصل الأول عن الثانية، ولا يمكن للثانية أن توجد في انفصال عن الأول، فلكُلّ لغة جسد يحملها، وكل لغة ناطقة في هذا الجسد دون سواه. لذلك «لا يقود الانتماء إلى ثقافتين مختلفتين إلى التحدُّث بلغتين مختلفتين فحسب، بل يعني استيطان عالمين حِسّيّيْن من طبيعتين مختلفين»

(إ. توماس هال). ينسحب هذا الأمر على اللباس والطقوس الاجتماعية، كما ينسحب على التعبُّد في المساجد والكنائس (يحرص المسلم لحظة الصلاة على وضع غطاء على رأسه، ولا تستقيم العبادة عند المسيحي إلا والرأس عارٍ).

استناداً إلى ذلك، نحن لا نتكلَّم فحسب. إن اللغة تتكلَّمنا، فهي ما يمدُّنا بطريقة مخصوصة في استعمال أجسادنا لحظة التلفُّظ، ولحظة التواصل الإيمائي أو الجسدي. ذلك أن كل «شعب يتكلَّم بالطريقة التي يفكِّر من خلالها، وإذا كان يفكِّر بهذه الطريقة، فإن أساس ذلك مودع في استعداداته الجسدية والروحية، وهذا التفكير يؤثِّر في هذه الاستعدادات (هيردر) ويُشْرطها بأشكال خاصة للتحقُّق. فليس هناك من فاصل بين تقطيع صوتي «محلّي» تتشكَّل من خلاله الكلمات، وبين جسد لا يمكن أن يوجد إلا من خلال إيماءاته. وقد يكون سرّ ذلك في الغناء أيضاً، (الميلوديات المختلفة). إننا نسكن اللغة كما نسكن الجسد، فوقع الحسّي الخارجي على الذات مودَع في الطريقة التي تُستعمل بها هذه اللغة أيضاً.

والحاصل من كلّ هذه التحديدات الأوّلية الخاصّة بطبيعة اللغة وموقعها في التجربة الإنسانية، أن الشعوب لا تُستَشار في أمر اللغات التي يجب أن تتكلَّمها، كما لا يُستشار الوليد في أمر الأصوات التي يجب أن يستعملها لاستيعاب محيط طارئ على حواسه؛ فالعين لا يمكن أن ترى بدون مفاهيم. إن اللغة «مفروضة» بحكم الانتماء إلى هذه الثقافة دون سواها. فلا خيار أمام الذات المتكلِّمة، بل هناك ضرورة حياتية تضعها أمام سؤال وجودي: تكون أو لا تكون، ولا سبيل ثالثاً هناك سوى الانتحار الحضاري، أو الذوبان الهجين في لغات ستظلّ على هامش ثقافتها إلى الأبد. إن الذات الموزَّعة على كل اللغات، بما فيها القاعدة اللهجية لا يمكن أن تحقِّق تواصلاً سليماً، فأحرى أن تنتج فكراً أو معرفة. فهي تتحدَّث كلّ اللغات، ولكنها لا تتحدَّث أياً منا. إن المناطق الموحشة أقوى داخلها من تلك التي تؤثِّثها الكلمات، فما يأتيها يشكِّل أداة لا طاقة تعبيرية أصيلة.

وتلك مميِّزات زمننا الراهن، قديماً في بداية القرن الماضي وحديثاً في عصر التواصل المفرط. لم يعد من الممكن في هذه الأزمنة العيش في انفصال عن العالم، ولكننا لا يمكن أن نعيش فيه من خلال رؤاه. يجب أن نقبل بالتعدُّد في اللغات وفي الثقافات، فكلّ لغة تختفي من الوجود تخسر بها الإنسانية رؤية للعالم، ولكن هذا لا يعني القبول باستباحة الذاكرة أو محوها. فكما أن الارتباط بالعالم لم يعد أمراً اختيارياً، بل ضرورة تُمليها حاجات التبادل الشامل في كل المجالات، كذلك لا يمكن الحديث عن تطوُّرنا الحضاري، أو عن تبنّينا للرؤى الحداثية ومنجزات التحديث إلا استناداً إلى ممكنات اللغة التي من خلالها جئنا إلى الوجود؛ فالإنسان لا يستبدل لغة بأخرى، بل ينتقل من رؤية إلى أخرى، فعوالم الواقع هي خلاف عوالم المفاهيم الرمزية.

فبالإمكان تبادُل أشياء ومنتجات، ويمكن استبدال الأشياء بعضها ببعض، وبالإمكان تغيير مظاهر الحياة الخارجية دون أن يختلّ مضمون الهوية أو يتمّ التشويش عليها، ولكن لا يمكن المساس بلغة ما دون بسط ستائر جديدة بين واقع الذات في الحاضر، وبين ذاكرتها المنتشرة في كل منتجات الأدب والفكر، ذلك أن قدر الأشياء ليس في مادتها، بل في موقعها داخل اللسان، إنها «ناطقة» من خلال التمثيل الرمزي لا من خلال تربتها الأصلية. إن الناس لا يتداولون فيما بينهم أشياء ماديّة، بل وجهاً مفهومياً منها، وذاك هو حقيقتها، فما تحتفظ به الذاكرة هو هذا الوجه وليس ما يأتي إلى العين دون وساطة العلامات.

قد يتعلَّق الأمر بخاصّيّة كونيّة تتشابه من خلالها كلّ اللغات، هذا أمر لا شَكّ فيه، إلا أن هذه الكونية لا تنفي أن يكون لكل لغة طريقتها في الكشف عن مضامين محيطها، وطريقتها في صياغة مظاهره وفق تحديدات تخصّ «الفوق» و«التحت» و«المذكَّر» و«المؤنَّث»

و«اليمين» و«اليسار»، والتميز بين الألوان. إن حقيقة الإنسان في لغته، وليست في شيء آخر غيرها، فقد يستطيع المرء تعلُّم ما يشاء من اللغات، لكنه لن يستطيع أبداً التصرُّف في العوالم الحسّيّة التي تأتيه من لغته الأم. فنحن نتعلَّم اللغات الأجنبية لكي نوسِّع من الرؤى التي تتوافر عليها اللغة الوطنية. فلم تستطع فرنسا في الجزائر، بعد قرن ونصف من الاحتلال، «استيطان» وجدان الجزائريين. لقد ظلوا، داخل لغتها، خارج سلطة مخيالها.

إن ما يجب محاربته في نهاية المطاف وبدايته هو النظرة «الأداتية» للغة. فلن تعمل هذه النظرة إلا على إفراغها من حمولتها الحضارية، وتحويلها إلى «مطرقة» أو «منجل» أو أي آلة أخرى، أو تحوِّلها في أحسن الحالات إلى مستودع لمفاهيم ومصطلحات بلا ذاكرة وقابلة للاستعمال في استقلال عما يقوله تاريخها ضمن العلم وخارجه (المعجم التاريخي الذي ينادي به الكثير من المفكِّرين لأنه يحفظ ذاكرة الكلمات، لا مردوديتها في التواصل الحالي فقط). وسيكون السؤال المرتبط بهذا التصوُّر فاسداً في أصله، لأن التساؤل عن إمكانية استمرار هذه اللغة في الوجود أو إمكانية التخلّي عنها، شبيه بالتساؤل عن إمكانية التخلُّص من جزء من الذاكرة مقابل مكاسب قد يأتي بها التمدُّن والتصنيع وكلّ التكنولوجيات الحديثة.

وهذه المبادئ العامة هي التي تحكَّمت، بشكل حدسي في الكثير من الأحيان، بتصوُّرات مَنْ حاولوا في هذا الكتاب، وفي غيره، الإجابة عن مصير اللغة والهوية أمام زحف التمدُّن والغزو الاستعماري في بداية القرن الماضي، وتحكَّمت في تصوُّرات المعاصرين الذين يحاولون اليوم، وفق شروط تاريخية جديدة، بلورة صيغة أو صيغ تخصّ الجواب عن سؤال مستقبل العربية في ظروف عولمة انصهر فيها العالم في قرية

صغيرة، ولم يعد «الضعيف» قادراً على العيش فقط ضمن ما تمدّه به مقوِّمات هويّته في كل تجلّياتها الفكرية والتواصلية. فأن تكون اللغة مكوِّناً لا يمكن استبداله بالانتقال إلى سجلّات لغوية أخرى، إلا في حالات الازدواجية الموجهة إلى إغناء اللغة الأم، أو حالات الترجمة التي تُعَدّ تعبيراً عن التفاعل والتلاقح لا تعبيراً عن استلاب مَرَضي، معناه أننا لا يمكن أن ننتج حضارة خارج ما تمدُّنا به لغتنا.

وهناك في العالم من التجارب ما يكفي لتأكيد هذه الحقيقة، لقد استطاعت الصين، من موقع العولمة الجارفة، بناء إمبراطورية اقتصادية عالمية بلغة تشتمل على آلاف «العناصر» (وليس الحروف)، وقد «قهرتنا» إسرائيل بلغة كانت منسيّة في نصوص دينية عتيقة لقرون طويلة، ولم يستطع الأفارقة الذين تبنّوا الفرنسية أو الإنجليزية إنتاج حضارة خاصّة بهم، فقد ظلّوا يتحرَّكون، طوال تاريخهم الحديث، داخل لغات عجزت- إلا في النادر من الحالات- عن استيعاب كامل طاقات الإبداع التي تختزنها أرواحهم (حالة إفريقيا الجنوبية حالة خاصة، فقد كان للبيض الأفارقة دور مركزي في نهضتها). إن تبنّي لغة غربية بديلاً عن اللغة الوطنية لا يخلق من المواطن حداثياً، ولا يسهم بالضرورة في خلق إقلاع تنموي شامل يستوعب الاقتصاد والذهنيات في الوقت ذاته.

إن التنمية مشروع حضاري شامل يستقبل الآتي بما يملك من موروث ممتدّ في التاريخ واللغة والثقافة والحاضر الزمني، وهي الوسيلة الوحيدة للمصالحة بين «زمنية الهويّة» وبين «زمنية إنسانية» كونية، بين ما يمكن أن تقدِّمه الثقافات الأخرى، وعلى رأسها اللغات الأجنبية، وبين قدرة اللغة العربية على استيعاب واحتضان الوافد منها ومن ثقافتها، بما في ذلك قدرتها على «تفصيح» المحيط بالانفتاح على ما تنتجه

الممارسة من مفردات ومفاهيم يجب أن تعرف طريقها إلى قواميس حديثة من خلالها يُقاس تطوُّر اللغة، ومن خلالها تنتعش ذاكرتها، وتمتدّ لتستوعب المزيد من المساحات.

فلا حياة للغات خارج الممارسة، لذلك سيظلّ المرجع الأسمى للغة العربية هو «الكلام»، أي التداول النفعي، بما يعنيه من تسمية وإبداع وإنتاج للدلالات الثانية، لا الطابع القدسي أو التراثي فيها. وستكون العامّيّة ضمن هذا المرجع مصدراً من مصادر تجدُّدها كما هو التوليد الذاتي، ولكنها يجب أن تكون تابعة لها لا أن تتطوَّر على هامشها من خلال انتشار ألفاظ مستورَدة من لغات غريبة موجَّهة للتسمية وللتعبير عن النفس خارج الأساس الحضاري الذي وُلِدت ونَمَت داخله.

إن التواصل الفعلي بين الأفراد تتحكَّم فيه مسألتان: نمو الوعي والرصيد الحضاري، والقضاء على الأمية أولاً، ويتحكَّم فيه ما يُسَمّى «الاقتصاد» الذي تقتضيه الحاجة التواصلية ثانياً، فضغط هذه الحاجة المباشرة يقود بالضرورة إلى بَلْوَرَة لغة مَرِنة لا تكترث كثيراً للقواعد الصوتية والتركيبية، ولكنها تستمدّ مقوّماتها من اللغة المعيار، كما هو الشأن في كلّ اللغات، وإن بأشكال متفاوتة. فلغة العمال والفلاحين ولغة المهمَّشين، عندنا وعند غيرنا، ليست هي لغة الأساتذة في الجامعات، ولغة تدبير شؤون الحياة اليومية ليست هي لغة التخصُّص العلمي.

يكفي، لتقليص الهوّة بين الدارج والفصيح، إشاعة التعليم والقضاء على الأمّيّة وإعادة اللغة العربية إلى الشوارع وواجهات المتاجر، إعادتها إلى تسمية أشياء حياتنا وانفعالاتنا. قد يبدو الأمر ميكانيكياً وتبسيطياً، ولكنه الحقيقة في واقع الأمر، يكفي للتأُّكد من ذلك المقارنة بين لغة المثقَّفين اليومية (في المقاهي لا في مدرجات الجامعات أو

قاعات المحاضرات) وبين لغة شرائح واسعة من المجتمع ما زالت ترزح تحت وطأة الجهل والتهميش والأمّيّة. وعدا ذلك، فإننا سنعيش ازدواجية مزيَّفة، أو هي ازدواجية «هجينة» لأنها لا تحترم تقسيم عمل صارم يضع السجلّ اللغوي الوافد في خدمة نموّ ثقافي يتجلّى داخل اللغة الوطنية، لا في مظاهر تحديث مزيَّف لا يطال الذهنيات وأنماط السلوك.

قد يكون ذلك نتاج الطريقة التي دخلنا بها العالم الحديث، فانخراطنا في هذا العالم كان منذ البداية «جزئياً»، أو كان «صورياً»؛ فنحن لم نعش آلام مخاض الولادة إلا في شكل صدى مازالت تردِّده النخبة المثقَّفة، وتنتشي بمتعة الإبداع فيه داخل أسوار الجامعات تحت رقابة سلطة سياسية يعنيها الأمن أكثر مما تثير اهتمامها المشاريع الحضارية. ووفق هذه الحاجات الأمنية تحقّق تحديث مظاهر الحياة عندنا، لذلك لم يكن التحديث اختياراً «حداثياً» يفرزه أو يستوعبه نموّ داخلي تدريجي يوازي بين حاجات البنية الذهنية وبين ممكنات الواقع الاجتماعي.

وضمن هذه المعادلات، ستستمرّ اللغة العربية في الوجود. هذا أمر مؤكِّد: ستظلّ حَيّة في المساجد ومنابر الوعظ والإرشاد والتوجيه الديني، وحَيّة في بعض الفضائيات الإخبارية والبرامج السجالية، ولكنها ستختفي، أو تكاد، من التداول اليومي. لن تحلّ محلَّها لغة أجنبية، كما يتوهَّم ذلك البعض، عن جهل أو عن قصد، فاللغات لا تُستنبَت بقرار إداري أو سياسي، بل ستختفي في ثنايا لهجات محلّيّة مُطَعَّمة بالكثير من المفردات الأجنبية المدرجة التي غالباً ما تلج العربية وقد فقدت طاقتها التعبيرية الأصلية.

يتعلَّق الأمر بما يشبه العودة إلى حالة من الحسّيّة الوثيقة الصلة باستهلاك موادّ أو خدمات، حيث تختفي الإحالات المفهومية المجرَّدة في ردود أفعال شبيهة بالمثيرات البصرية ذات الطابع الانفعالي اللحظي. إن شوارع بعض البلدان العربية (دول المغرب العربي على الخصوص) تعجّ بلوحات إشهارية تروِّج لمنتجات «بلغة» لا يمكن فهمها بأية لغة أخرى، ووحدها الحاجة الاستهلاكية تمكِّن العين من التقاط غاياتها النفعية.

والخلاصة أن اللغة ستظلّ دائماً هي النافذة الوحيدة الممكنة على عالم خارجي لا يمكن أن يستقيم وجوده إلا عبر ما تقدِّمه ممكنات المفهمة فيها. ذلك أن الإرث الحضاري لا يكتفي بالإحالة على اللغة باعتبارها مجموعة من القواعد تشمل التركيب والدلالة والصوت فقط، بل تتَّسع هذه القواعد لتشمل كل منتجات الموسوعة الفكرية والفنية التي أنتجها الاستعمال الخاص لهذه اللغة، أي مجموع التقطيعات الثقافية التي يلج عبرها المتكَلِّم محيطه، واستناداً إليها يكشف عن أناه، ما يميِّزه عن غيره، ويضعه فرداً موجوداً في مواجهة آخرين ليسوا هو، في اللحظة وفي التاريخ معاً، وهي أيضاً المنفذ المفضَّل لـ«النحن»، تلك المصفاة، الضابط الاجتماعي الذي تتوحَّد من خلاله كل الأنات الممكنة.

وهذا ما تؤكِّده كل الأحكام: إن اللغة قَدَر لا يمكن ردُّه إلا بالامتثال لقضائه، إننا لا نتخلَّص منها بعد استعمالها. لذلك لا نختار لغاتنا، تماماً كما لا نختار آباءنا ولون بشرتنا، كما أكَّدنا ذلك أعلاه، إننا نرث من خلال اللغة رؤية وموقفاً وتصنيفاً وأحكاماً تنصبّ كلّها على النفس والآخر والمحيط الطبيعي، تماماً كما نرث الأخوة والأخوات و«الخريطة الجينية». إن فرض لغة ما أو التخلّي عنها قسراً أو طوعاً لن يقود إلا إلى التشويش على الذاكرة وعلى طريقة تمثُّلها للعالم واستيعاب

حدود السلوك الفردي والجماعي على حَدّ سواء. قد «نكره» الآخرين، وقد يكرهوننا هم أيضاً، لأننا نُنكر وينكرون ما تبنيه اللغة عنا وعنهم، لا ما يمكن أن تقوله حقيقتنا وحقيقتهم في الواقع.

استناداً إلى كل ما قلناه، يجب التأكيد أننا لن نعيد للغة العربية بهاءها ودورها الفعلي في المجتمع بتأسيس المجامع اللغوية وتكوين النحويين والبلاغيين وجهابذة اللغة. علينا أن نفعل ذلك من خلال إعادتها إلى الشارع، إلى واجهات المتاجر وإلى الحديث اليومي، ليس من خلال ملفوظات مسكوكة شبيهة بصكوك الغفران، ولكن من خلال الاعتراف بتفاوت السجلّات اللغوية، وتباينها من فئة إلى أخرى ومن قطاع معرفي إلى آخر ومن حالة تواصلية إلى أخرى. تلكم بعض العناصر الأولية التي يجب اعتمادها من أجل تأهيل العربية وجعلها النافذة المفضَّلة والمركزية للتعاطي مع الآخر ومع منتجاته في كلّ الميادين.

سعيد بنگراد

مقدمة

يهمّ أهل الأقطار العربيّة جميعاً في هذا العهد الجديد أن يعرفوا ما يكون من أمر اللغة العربيّة في المستقبل، وهل تعود إلى سالف مجدها وعزّها، وما يكون تأثير التطور العام فيها. كذلك يهمّهم أن يحيطوا بما يكون من موقف هذا الشرق العربي الناهض إزاء المدنيّة الغربيّة الحديثة، وماذا يجدر به أن يقتبسه منها، إلى غير ذلك من المسائل الخطيرة التي تشغل أذهان المفكّرين. وقد جمعنا في هذا الكتاب آراء طائفة من صفوة الكُتّاب والأدباء والمستشرقين في هذه الموضوعات العظيمة الشأن ردّاً على استفتاءين عرضهما عليهم «الهلال» في بضع السنوات الأخيرة. ولا ريب أن قرّاء العربيّة سيقدِّرون هذه المجموعة الفريدة حقّ قدرها، فإنه لم يسبق أن اجتمع بين دفَّتَيْ كتاب مثل هذا القدر من النظرات البعيدة والأفكار الخطيرة.



الكتاب الأول

مستقبل اللغة العربيّة

موضوع الاستفتاء

- ما هو مستقبل اللغة العربيّة في نظركم؟
- وما عسى أن يكون تأثير التمدين الأوروبي والروح الغربيّة فيها؟
- وما يَكون تأثير التطوُّر السياسي الحاضر في الأقطار العربيّة؟
- هل يعم انتشارها في المدارس العالية وغير العالية وتُعَلَّم بها جميع العلوم؟
- وهل تتغلَّب على اللهجات العلمية المختلفة وتوحِّدها؟ وما هي خير الوسائل لإحيائها؟

الأستاذ أ. غويدي

المستشرق الإيطالي والعضو في مجلس الشيوخ

.. لا ريب في أن الامتيازات العظيمة التي حصل عليها العرب من جَرّاء حوادث السنوات الأخيرة سيكون لها تأثير شديد في اللغة العربيّة. وفي رأيي أنه يجب أن تتكوَّن لغة كتابيّة سهلة يفهمها الجمهور العربي، وتكون مستقلّة عن اللهجات العاميّة المختلفة.

أما الإنشاءُ الخيالي المفخّم وأساليب البديع فيجب أن تُخَصَّص للكتب ذات الصفة الأدبيّة الصرفة. ثم إني أرى من الممكن إدخال شيء من الإصلاح على طريقة الكتابة العربيّة، ولاسيما فيما يتعلَّق بكتابة أسماء الأعلام. على أني أعلم جيداً الصعوبات التي تعترض هذا الإصلاح بالنظر إلى الخط العربي وقواعده. ولكن، ألا يمكن استعمال أحرف خاصة سميكة في أول أسماء الأعلام من حجم الأحرف الأخرى؟ إن العمل بهذا الرأي يسهِّل مطالعة الكتابة العربيّة كثيراً فضلاً عن فوائده العظيمة في التعليم.على أنه يسهِّل عليكم أكثر مما يسهل عليّ تكوين رأي في هذا الشأن. وعلى كل حال فإني شديد العناية بتتبُّع التقدّم الذي يحدث في البلاد العربيّة. ولا ريب عندي أن الجنس العربي سيلعب مرة أخرى دوراً خطيراً في تاريخ الشرق والحضارة.

(ترجمة)

أ. غويدي

الأستاذ رتشرد كوتهيل

المستشرق الأميركي والأستاذ في جامعة كولمبيا

قَلّ منا نحن - الغربيين - مَنْ يقدِّر اللغة العربيّة حقّ قدرها من حيث أهميتها وغناها. فهي بفضل تاريخ الأقوام التي نطقت بها وبداعي انتشارها في أقاليم كثيرة واحتكاكها بمدنيات مختلفة قد نمت إلى أن أصبحت لغة مدنية بأسرها بعد أن كانت لغة قبيلة واحدة. ومع أن اللسان المغربي يختلف عن اللسان المصري بقدر ما يختلف اللسان المصري عن الحضرمي والحضرمي عن البغدادي، فاللغة واحدة والخط واحد. فالعربيّة من هذا القبيل أشبه بالإنكليزية التي اجتازت البحار، وقطعت القارات، وغدت أساساً لمدنيّة جامعة.

ومما لا ريب فيه أن الانقلابات الناجمة عن الحرب الكبرى سيكون لها شأن في تقريب البلاد العربيّة وأبنائها على اختلاف مِلَلهم ونِحَلهم وتكوين ما نسميه نحن - الأوروبيين - «مدنيّة». وسوف يتيسّر للمدنية الأوروبية إحداث تأثير في اللسان العربي. وهو تأثير لا مندوحة عنه بداعي التلامس المكاني والالتصاق الروحي اللذين كادا يتمّان. على أن اللسان العربي والآداب العربيّة ستحتفظ بكيانها في المستقبل كما احتفظت به في الماضي. فهذه هي المرة الثالثة التي احتكّت فيها بمدنية الغرب وعادت سالمة. ففي صدر الإسلام احتكّ الدين الجديد والنهضة الجديدة وآدابها بحضارة العصر اليوناني اللاتيني الذابلة، واستفادت فائدة جليلة إلا أنها لم تغلب على أمرها. ولما اجتاز العرب بوغاز جبل طارق، وحلّوا في إسبانيا وجنوبي فرنسا تَمَّ التلامُس للمرّة الثانية وذلك مع المدنيّة اللاتينية الغوتية، ولكن العرب لم يقهروا،

بل تقهقروا إلى أفريقيا تاركين في إسبانيا أكثر مما أخذوا عنها. فمن الواضح أن الينابيع التي استمدَّت منها الآداب العربيّة وحيها وإلهامها لم تكن ناضبة.

وفي مذهبي أن نتيجة الاحتكاك الثالث الذي نحن بصدده الآن ستكون مثل نتيجته في المرتين الأخريين مهما تكن التغيرات السياسية. فربما بسطت فرنسا حمايتها على سوريا. وبريطانيا العظمى تولّت المحافظة على مستقبل جنوبي ما بين النهرين، غير أنه لا يعقل أن اللغة الفرنسية أو الإنكليزية تحلّ محلّ اللغة العربيّة، وأن شعباً له آداب غنية متنوعة كالآداب العربيّة، ولغة مرنة لينة ذات مادة تكاد لا تفنى، ولا يخون ماضيه، ولا ينبذ إرثاً اتَّصل إليه بعد قرون طويلة عن آبائه وأجداده. ولو أصبح العالم كله واحداً في الجنس واللغة لكان ذلك من تعسه. فعلى المرء أن يفهم فكر أخيه وعمله مهما اختلفت الألسن. وليكن برج بابل رمزاً للوحدة، برغم التباين، لا للتبلبل والاضطراب.

لابد أن يكون للتأثير الغربي شأن في الشرق الأدنى. ولابُدَّ من إيجاد كلمات جديدة لمعانٍ جديدة، ولكن هذا يسهل وقوعه ضمن دائرة اللغة وبفضل الوسائل التي لدينا. ومن الممكن أن يتشعَّب عن اللسان العربي على كرور الأيام لهجات متعدِّدة. فالفاصل القديم بين العربيّة الشرقية واللسان المغربي لن يزول. فإن مراكش لن تغيِّر لهجتها إجابة لداعي قوّة خارجية. ومع ذلك فالتباين الجزئي الذي يقلق خاطر الغربي وهو مسافر من مصر إلى فلسطين وسوريا، ومن هناك إلى بلاد ما بين النهرين -وهو تباين لا يزيد عن التباين الكائن بين لهجة لانكشير و يوركشير في اللغة الإنكليزية - لابد أن يزول إلا القليل منه. وعليه فسيكون لدينا منطقة عربية تتكلَّم لغة واحدة شاملة كلّ أفريقيا الشمالية، ولا يصدّها عن الجنوب سوى سير الإنكليزية والفرنسية من إفريقية الوسطى إلى

الشمال، مع كلّ جزيرة بلاد العرب حتى جبال طورس حيث تصدّها الألسن الإيرانية العجمية، ومن هناك إلى بلاد ما بين النهرين حتى الخليج العجمي. ولولا قيام الأمّة الأرمنية الحديثة لما كان عندي شكّ في أن العربيّة تتمكّن من الانتشار تدريجاً في آسيا الصغرى والقيام مقام التركية، فإنها تفضلها بنشاطها وإمكان تكيّفها.

وما قيل في اللغة يقال في الخط العربي. فمن الغبن والعبث أن يحاول أحد - كما حاول بعضهم في الماضي القريب - أن يقنع الأقوام الناطقة بالضاد بأن تستعيض عن خطّها بالخط الأوروبي. فإن حرفاً تكتب به العربيّة، والفارسية،والتركية، والأوردية، وغيرها لحقيق أن تستعمله الشعوب الناطقة بالضاد. ولا يستطيع الإنسان اختراع حرف قادر على مجاراة التغيُّرات اللفظية الناتجة عن تغيُّر الزمان والمحيط. ورُبَّ حياة سهلت شؤونها لدرجة أصبحت بها موتاً، ولم تَعُدْ حياة!

ولست أرى سبباً يمنع جعل العربيّة في كل تلك الأمصار لغة التعليم في المدرسة وفي الكلّيّة. بل يجب جعلها كذلك. على أني أستثني فلسطين حين تصبح وطناً سياسياً لليهود؛ إذ تكون العبرانية لغة التعليم فيها. ولكنني أطلب جعل تدريس العربيّة إجباريّاً لأنها لغة مواطني اليهود في فلسطين ولغة المدنيّة المحيطة بهم. وإنني ممَّن لا يستحسنون جعل اللغات الأوروبية لغات تدريس عامة، بل أنا ممّن يقولون بتدريسها في الكلّيّات وأندية العلم العليا.

كان للعربية ماضٍ مجيد. وفي مذهبي أنه سيكون لها مستقبل باهر. ولأرباب العلم في مصر وسوريا فضل في إبقاء نورها ساطعاً. أما الآن وقد خُوِّلوا حريّة لم تكن لهم من قبل، وأزيح النير التركي الظالم عن رقابهم ففي استطاعتهم اتباع الخطة التي رسموها لأنفسهم. والطريقة

الوحيدة التي يجب استعمالها هي طريقة التهذيب. وليس من وسيلة لإشعال النور الذي سطع في الأيام الغابرة وجعل الشعوب الناطقة بالضاد خلفاً صالحاً لأسلافهم العظام أفضل من درس تاريخ الآباء وآداب الأجداد.

(ترجمة)

رتشرد كوتهيل

الأب لامنس

العلّامة المستشرق اليسوعي

إني أثق بمستقبل حسن للّغة العربيّة على شرط أن يتولّى الحكم في البلاد العربيّة رجال ذوو نظر بعيد وأفكار واسعة ووطنية رحبة يقتنعون بأن مستقبل لغتهم يتوقّف على اتّحادها وثيقاً بالمدنيّة الغربيّة.

ويجب أن يُعنى أهل البلاد العربيّة بلغتهم باعتبار أنها لغة وطنية. على أنه ينبغي لهم أن يثابروا على تعلُّم اللغات الأوروبية التي مكَّنت السوريين بوجه خاص أن يلعبوا دورهم التاريخي. وليس عندي أدنى شكّ في أنه إذا جُعِل التعليم العالي باللغة العربيّة تنعزل البلاد شيئاً فشيئاً عن الحركة العامة، إذ تصبح اللغة الوطنية حاجزاً منيعاً دون مواصلة التقدُّم.

هذا هو رأيي. ولا سلطة لي في إبدائه إلا ما خوّلني إياه انصرافي أثناء أربعين سنة إلى تعلُّم اللغة العربيّة وتاريخ الشعوب التي تتكلَّمها.

(ترجمة)

لامنس

الأستاذ وليم ورل

المستشرق الأميركي ومدير مدرسة المباحث الشرقية الأميركية في القدس

ينبغي للباحث في مستقبل الشعوب التي تتكلّم العربيّة ألا يبرح من ذهنه أن الشعوب المسيحية الغربيّة قد مَرَّت في دورين من أدوار التطوُّر السياسي في حين أن الشعوب العربيّة لم تختبر إلا أحدهما. أما الدوران فهما: دور العصبية الدينية، ودور العصبية القومية. ولا يخفى أن الشعوب جميعاً تتقدَّم اليوم نحو دور ثالث هو الدور الدولي Internationalism (أي الدور الذي تُعَدّ فيه، لاعتبارات الدولية المشتركة أسمى من الاعتبارات الوطنية الخاصة). فقد كان العالم قبل تكوّن القوميات الحديثة مقسوماً إلى قسمين رئيسيين: النصرانية ولغهتا اللاتينية، والإسلام ولغته العربيّة. وقد كان اليهود في الغرب والمسيحيون الشرقيون في الشرق بمثابة دخلاء غرباء بين أقوام يختلفون عنهم في العقيدة.

على أن العالم الغربي مع كونه يتطلَّع في الوقت الحاضر إلى مجيء الدور الدولي باعتبار أنه يضمن مصالح البشر جميعاً، ويوفِّق بينهم لايزال قائماً على النظام الوطني القومي. والأمل قليل لأهل هذا الجيل بمشاهدة انحلال هذا النظام.

أما أهل البلاد فلم تتجلَّ الروح الوطنية بعد، فهم لا يزالون متمسِّكين بالعصبية الدينية، فهل يا ترى يدخلون في الدور الثاني، أم ينتقلون مباشرة إلى الدورة الثالث؟ هذا ما ستكشفه لنا الأيام.

وبتنا نرى رجال الدين من جهة يحثّون على الرجوع إلى العصبيّات

الدينية، والاشتراكيين والمتطرِّفين من جهة أخرى يرمون إلى التآلف على أساس تنوُّع الطبقات الاجتماعية، فالبشر لا يزالون في الواقع موزَّعين باعتبار القوميّات. وإني فيما يخصّني أُسَرّ لو رأيت أهل الأقطار العربيّة مخلصين لمصلحة البلاد التي يعيشون فيها قبل النظر إلى الروابط الدينية التي تربطهم. على أن ذلك مخالف لتقاليدهم في العصور الماضية، فإن الفوارق الدينية تكاد تكون أشدّ ويلاً على الشرق من الفوارق الاقتصادية في الغرب.

ومهما كان الأمر فإن حالة روسيا في الوقت الحاضر يجب أن تكون عبر الأقطار التي لم ينتشر فيها التعليم انتشاراً كبيراً. فإن التعليم أساس التقدُّم السياسي والمسؤولية السياسية.

أما سؤالكم عن مستقبل اللغة العربيّة فالجواب عليه أن هذه اللغة لم تتقهقر قَطّ فيما مضى أمام أية لغة أخرى من اللغات التي احتكَّت بها، ويُنتَظر أن تحافظ على كيانها في المستقبل كما حافظت عليه في الماضي.

ولا ريب أن الاحتكاك بالمدنيّة الغربيّة سيكون له شأن متزايد في تطوُّر اللغة العربيّة. فعسى أن هذا التأثير يتناول الآراء والأفكار من غير أن يتطرَّق إلى اللغة وقواعدها.

أما الانفجارات السياسية التي يشاهدها العالم في الوقت الحاضر فسيكون لها تأثير على الأقطار العربيّة. غير أنه - نظراً إلى الأحوال التي سبق لي وصفها وإلى أن رؤوس الأموال قليلة فى الشرق - لا يُتَوقَّع حدوث شيء شبيه بالبلشفية. ولو حدث ذلك لأدّى - على الأرجح - إلى اضمحلال اللغة العربيّة الفصحى.

وللغة العربيّة لين ومرونة يمكّنانها من التكيُّف وفقاً لمقتضيات هذا العصر. وليس من يشكّ في أنه متى سنحت لها الظروف تستطع أن تبلغ درجة من الدقّة والرقي تمكّنها من التعبير عن أسمى الأغراض العلمية. ويجوز إذ ذاك للجامعات الشرقية أن تعلِّم العلوم باللغة العربيّة كما تُعلَّم في هولندا والدانمارك مثلاً باللغتين الهولندية والدانماركية. على أنه لا يكون للشرقيين غنى عن تعلُّم الإنكليزية، والفرنسية، والألمانية كما يتعلَّمها الغربيون أنفسهم.

أما سؤالكم عن بقاء اللغة العربيّة واحدة أو تحوَّلها إلى عدّة لغات فالجواب عليه أن اللغة العربيّة الفصحى ليست حَيّة في أفواه الشعوب العربيّة. ولو استطاع أحد أن يجعلها جميعاً تتكلَّم بها - ولو بصورتها العصرية كما تبدو في الجرائد - فإنه يأتي بذلك أمراً ليس له من مثيل في تاريخ العالم. فالنتيجة التي لا مناص منها هي أنه سوف تعتبر إحدى اللهجات العربيّة الشائعة - إما كما هي أو مع بعض التعديل - المثل الأسمى للعربية فتستعمل للتعبير في الموضوعات الأدبية.

والطريقة الفضلى لحفظ اللغة العربيّة وإحيائها هي الاعتراف بالقاعدة التاريخية الثابتة التي مؤدّاها أن مرجع اللغة الحقيقي على مرور الزمن هو كلام العامّة مع شيء من التنقية والتطهير. وأنه من المحال إيجاد حياة وطنية صحيحة بلا معونة لغة يستطيع الشعب بأجمعه أن يفهمها، ويكتبها بسهولة.

(ترجمة)

وليم ورل

خليل مطران

أديب القطرين السوري، والمصري

أرجو بما تبذله مصر والشام من المجهودات العظيمة في سبيل إحياء اللغة العربيّة أن يكون مستقبلها زاهياً زاهراً. ومعظم هذه المجهودات قد اتّجه الوجهة التي دعت إليها ضرورات الحياة، أو قضى بها طلب البقاء. وعامل هذا الاتجاه إنما هو تأثير التمدين الأوروبي والروح الغربيّة لتغلّبهما على أخلاقنا وعاداتنا وعيشاتنا باختلاف ضروبها، ومن ثَمَّ على أحوالنا الأدبية وأساليبنا البيانية، بحيث أنك لو طالعت الآن مقالات الصحف وفصول المجلّات والأسفار لوجدتها شبيهة بالمعرَّبة، وإن كانت مُنشَأة إنشاءً.

وذلك لا لعجمة تعتور فصاحتها بالضرورة ولا لهجنة في تراكيبها تنجم من اختلاط السليقة، بل لأننا بفعل التقويم الذي قُوِّمت عليه نفوسنا والتنشئة التي نُشِّئت عليها ملكاتنا أصبحنا نستغني عن كثير من الفضول التي كانت تضفو عن مقتضيات المقام في الفواتح والخواتم من كل كلام، ثم لأننا أصبحنا نعدّ للقول موضوعه، ونرتِّب أجزاءه، ونتخيَّر له من المعاني والألفاظ كل ما يتساوق معه، ونقطع الجمل لإراحة القارئ مع بقاء الارتباط الضمني والتسلسل الذهني، ثم لأننا بتصوُّرنا الأشياء التي تقع تحت أبصارنا على النحو الذي انتهت إليه صورها على يد الاختراعات والابتداعات والمحرّرات والمحبَّرات الأفرنجية الجديدة أصبحنا ندوِّنها على النحو المنطبق عليها والذي هو، إذن، مختلف عما كانت عليه أمثالها من قبل كاختلافها هي عن تلك الأمثال. أليست المصابيح والمرائي، بل البيوت والقرى، بل كل ما نستعمله من أداة، ونطالعه من صحيفة غير ما كان عند العرب بشكله ونظامه على كونه

إياه بالغرض المقصود منه والحاجة التي خُلِق لقضائها.

***

تمشي الآن مصر في مقدِّمة الأمم العربيّة الأخرى من حيث العناية بتعلُّم اللغة العربيّة وتعليمها في المدارس الأولية والعالية. وقد أصبحت سورية تليها بعد أن كانت سابقة لها في هذا المجال. وأعتقد أن سائر الاقطار العربيّة ستطرس على آثار هاتين الأمَّتين اللتين هما منارتاها. وقد قَرُب اليوم الذي يُستطاع فيه وجود الكلّ أو الجلّ من الاصطلاحات العربيّة أو المعرَّبة بإحكام ومهارة لتلقين ضروب العلوم بلسان الضاد. ويسرّني جداً تقرير ما أراه من التقدُّم الحثيث في هذه السبيل.

***

اللغات العامية أو اللغى ستبقى ما بقي اختلاف الزمان والمكان. وما دامت لا تتوحَّد الدولة العربيّة فلن تتوحّد اللغة العربيّة مجتمعة كلها في الفصحى أو في المبتذلة. ولكن هذا الاختلاف عينه هو الذي كان وسيكون أكبر سبب للعناية باللغة الفصحى وتعميمها بين طبقات المتعلِّمين في كل تلك الأمم لتُجعَل وسيلة التعارف، فالتآلف، فالتعاون في الشؤون المشتركة بينها بحكم اللحمة الشرقية، أو السدى الديني، أو الحماية المعاشية، أو الدفاع الحربي.. إلى آخر هذه البواعث الفعّالة القوية. ولا تنسَ أن الاستمرار في تعلُّم اللغة الفصحى وتعليمها والاهتمام بتسهيلها وتقرّيها وتعميمها هو أنها لغة القرآن الشريف. وكفى بهذا بياناً لقوم مبصرين.

***

أمّا خير الوسائل لإحياء اللغة فتعدُّد المدارس التي تُعنى بها ورعاية

الحكومات، أو جماعات ذات حول وطول من أهل الجاه والفضل لتلك المدارس، ووجود معجم صحيح شامل مضبوط بالشكل الكامل جامع للأصيل والمولّد والحديث بعلائم معينة يقرّه عقد نظيم من العلماء الأعلام المُجمَع على كفاءَتهم وتبريزهم في الأقاليم العربيّة على اختلافها يجعل مقرّهم مصر، ويكون ذلك المعجم وما إليه شغلهم الأكبر وعملهم الأظهر. وسأكتب في هذا المعنى بحثاً وافياً ببيانه وتبيينه لعظيم فائدته وعميم عائدته.

هذا رأيي بنهاية الإيجاز كما أردتم. وحَيّاكم الله.

خليل مطران

محمد كرد علي

صاحب «المقتبس» ورئيس المجمع العلمي العربي في دمشق

إن استفتاءكم في مستقبل اللغة العربيّة مهمّ للغاية، وإن التطوُّر السياسي الأخير يزيدها استحكاماً وانتشاراً. فإن التركية كادت تقضي عليها في دمشق وبغداد، بل في مكة والمدينة. وها هي الآن تنشط من عقالها، والنفوس ترغب في تحصيلها، والمتعلِّمون يفاخرون بإتقانها، وستدرَّس بها جميع العلوم العالية فتحسن دراستها، وتزيد مرونة لقبول الأوضاع الجديدة، لأنها لم تتعاص على ذلك وهي في إبان بعثتها، فكيف بها في هذا القرن وهي ترى العلوم تزيد والألفاظ والمسمّيات تكثر! ولعله لا يمضي قرن أو قرنان حتى تتوحَّد اللهجات العامّيّة، لأن الفصحى آخذة بالتغلُّب عليها على كل حال، ودليلنا على ذلك مصر وبعض مدن سورية التي كان فيها مدارس وجرائد كثيرة. وخير وسيلة لإحيائها نشر جميع ماخلَّفه علماء العرب وأدباؤهم من القرن الثاني إلى القرنين التاسع والعاشر للهجرة، وتعليم جميع العلوم العربيّة في المدارس، وبثّ الكتب النافعة بين جميع طبقات الأمّة في المدن والقرى والحواضر والبوادي، وعناية أهل كل أفق بترتيب فصحاء منهم ينوِّعون أساليب التعليم للأمّة في كتب، ورسائل، ومحاضرات، وخطب، وتمثيل، وغير ذلك.

محمد كردي علي

الأستاذ جبر ضومط

أستاذ اللغة العربيّة في الجامعة الأميركية في بيروت

(1) ما هو مستقبل اللغة العريبة في نظركم؟

(ج) مستقبلها غير ما كان يُقَدَّر لها قبل هذه الحرب المشؤومة التي غيَّرت، وسنُغَيِّر في أفكار وهمم أبناء هذه اللغة، كما غيَّرَت وستُغَيِّر من أفكار ونيّات الغربيين المستوصين بهم. ولعل تبعة هذه الحرب ستكون شراً من تبعة كل حرب تقدَّمتها على العربيّة والعرب إلى أن يتمّ التوازن الدولي بين الأمم.

(2) ما عسى أن يكون تأثير التمدُّن الأوروبي والروح الغربيّة فيها؟

(ج) إذا طما التمدّن الأوروبي على البلاد العربيّة في المستقبل القريب ـ وهو طام كما تشير إلى ذلك كل الظواهر - طمت معه لغة أهله على اللغة العربيّة. ومعنى طموّ التمدّن الأوروبي هو تعزُّز الغربيين وامتداد سلطتهم ونفوذ نفوذهم. وبعبارة أخرى هو تسلُّطهم الأدبي والسياسي حسّاً. وهذا - ولا شك - يوجب أو يفضي إلى إقبال المغلوبين على آداب الغالبين ولغتهم وإهمال آدابهم ولغتهم الوطنية نوعاً. وعلى نسبة شدة تسلُّط الغربيين ونفوذ نفوذهم تتراجع اللغة العربيّة إلى أن يتم المكتوب في لوح الأقدار. ولا شَكّ أن جهاد اللغة العربيّة والروح العربي في المستقبل سيكون شديداً جداً كماكان جهاد اللغة العبرانية والروح العبرانية اليهودية فيما مضى.

(3) ماذا يكون تأثير التطوُّر السياسي الحاضر في الأقطار العربيّة؟

(ج) إذا بقي التطوُّر السياسي الدولي على ما يظهر لنا الآن فلاشكّ

أن تأثيره سيكون شديداً يؤدي إلى المهاجرة الخفيّة. ولا يبعد أن يتبع السوريون وكثيرون من أهل ما بين النهرين خطوات اليهود أخوانهم في اللغة والجنسية، ويحذوا حذوهم في طريقة حفظ كيانهم. ولعل أكثرهم يفضّلون أخيراً التحصُّن بقوميتهم ولغتهم في ولايات أميركا الجنوبية المعتدلة الهواء، ويكثرون فيها، ويظهر تأثيرهم هناك ظهوراً لا يتهيَّأ لهم مثله في الولايات المتحدة ولا في أوستراليا. ويظن أنه كما كان شرقي أوروبا فيما مَرّ قبلة مهاجرة اليهود أخوان السوريين كذلك ستكون أميركا الشمالية والجنوبية – ولاسيما الجنوبية – قبلة مهاجرة العرب من سوريين وغيرهم. ولكنهم لا يلاقون من الاضهاد ما لاقاه اليهود ولا يزالون يلاقونه في روسيا وبولونيا وبعض ممالك البلقان. كل ذلك نقدِّر حصوله إذا استمرَّ التوازن الدولي الحالي كما نراه الآن من وراء ضباب السياسة الكثيف.

(4) هل يعمّ انتشارها في المدارس العالية وغير العالية؟ وهل تُعَلَّم بها جميع العلوم؟

(ج) إذا كانت رغبة الغربيين واهتمامهم في البلاد العربيّة كرغبة الأميركيين واهتمامهم في الفيليبين فسيحذو هؤلاء في نشر لغتهم هنا حذو الأميركان هناك. لكن، لمّا كانت العربيّة غير الفيليبينية فلا بدع، إذن، أن يشتدّ الجهاد بين العربيّة وبين الإنكليزية والفرنساوية، وسيكون السبق في المدارس العالية والطبّية للإنكليزية والفرنساوية في الأرجح لأن المستوصين بنا من أهل هاتين اللغتين سيديرون وجوههم إلى جهة جملهم: وهو طبيعي.

(5) هل تتغلَّب على اللهجات العامية المختلفة وتوحِّدها؟

(ج) في كل اللغات الراقية لهجات عامّية مختلفة، ولكن اللغة الفصحى

لغة المعلِّمين والمتعلِّمين وهي لغة المدارس والجرائد والكتب. وإذا بقي الإسلام - وسيبقى - فلغة القرآن والحديث وسائر الآداب العربيّة منذ عهد الرسالة إلى اليوم أقوى من سائر اللغات الأوروبية على هضم اللهجات العامية المختلفة. ولذلك فستبقى هذه اللغة الشريفة - كما كانت - لغة العلم والمتعلِّمين والأدباء والمتأدِّبين، ولغة الصحافة والمؤلِّفين إلى ما شاء الله.

(6) ما هي خير الوسائل لإحيائها؟

(ج) خير الوسائل لإحيائها رغبة أهلها فيها حفظاً لكيانهم وقوميَّتهم. ويزيد رغبتهم فيها تحامُل الإنكليز أو الفرنساويين عليها أو اضطهادهم جهراً لها. ولعلَّهم لايصارحون بالمقاومة. وحينئذ فلا أفضل من الاعتماد على المدارس الابتدائية الأهليّة واختيار أفاضل المعلِّمين لها وإشباعهم وإكرامهم لأنهم يخدمون هذه الخدمة الوطنية، ويضحون حياتهم في سبيلها. والسلام.

جبر ضومط

سليم سركيس

لمّا كانت اللغة العربيّة لغة المسلمين خاصة. وعليهم دون سواهم إنعاشها فجوابي على سؤالكم أن:

في فمي ماء وهل ينطق مَنْ في فيهِ ماء

سليم سركيس

عيسى إسكندر المعلوف

صاحب مجلة الآثار

(1) الأدلّة متواترة على ارتقاء اللغة اليومي بعناية أبنائها والمستشرقين الكرام. وكلّها مقدمات لنتائج حسنة تفضي إلى مستقبل حسن.

(2) إن لتأثير التمدين الأوروبي والروح الغربيّة فيها توسُّعاً بالأفكار وتفنُّناً بالأساليب وتبسُّطاً في التأليف والتعريب وبثّاً لروح جديدة بين الناطقين بالضاد. وذلك يظهر من استقراء النهضة الأخيرة منذ بدئها إلى اليوم. ويدلّ على هذا التأثير دلالة صريحة نثراً، ونظماً، وعلماً، وأسلوباً.. إلخ.

(3) سيكون التطوُّر السياسي الحاضر في الأقطار العربيّة باعثاً على رفع منار اللغة وتجديد نهضتها، لأن اللغة من الروابط السياسية الوثيقة العرى فتنهض بنهضة الحكومة.

(4) إن تعميم اللغة في المدارس العليا وغيرها وتعليم جميع العلوم بها يتوقَّف على مضافرة الحكومة وتذليل الصعاب المعترضة في سبيل ذلك.. وليس أفضل من المجامع العلمية تُقام في كل قطر، وتتَّحد برأي واحد على الأوضاع والمُعَرَّبات والمنقولات والمؤلّفات فتغني اللغة بها، وتنقل إليها أحدثها وأنفعها وأدقّها كما فعلت الحكومة المصرية في أول عهدها والمدرسة الأميركانية في بيروت في أوائل إنشائها، وكما تفعل اليوم وزارة المعارف في القطر المصري، وذلك يتم بتقديم الأهم على المهمّ وتذليل العوائق لنقل الشكوى من تعذُّر التعليم والتصنيف بالعربيّة.

(5) إذا بقي المحافظون على أساليب اللغة الفصحى واقفين في سبيل المتساهلين والناحين منحى العامّة في اللغة والأساليب يزيِّفون كتاباتهم، وينقدونها بتصحيحها، وينبذون كل ما يشوب الفصحى منها فستظهر هذه على اللغة العامّيّة. كما ترى بالمقابلة بين الأساليب الحاضرة والأساليب القديمة. ولاسيما في الجرائد والمجلّات.

(6) تقدّم لي ذكر أهم الوسائل لإحياء اللغة في مجلة الزهور المصرية (1 : 343 و 351) منذ تسع سنوات. وقد حصرت ارتقاء اللغة بسلّم ذات ثماني درجات هي الدولة، والأمّة، والمدرسة، والصحافة، والمطبعة، والتآليف، والمجمع العام، والمكتبة. فهي كافلة بإحياء اللغة تدريجاً لا طفرة. حَقَّق الله الآمال بها.

عيسى إسكندر المعلوف

مصطفى صادق الرافعي

الشاعر الأديب المعروف

إن الجواب على هذه المسائل لا يُلقى في كلمات، ولا يُبنى إلا على بحث طويل، غير أنّا نرمي بنتيجة البحث، ونعيِّن الجهة التي استقرّ عندها النظر. وكلّ جملة مما سنذكره هي محلّ تفصيل. ولا يغيبنّ عن القارئ أن بعض هذه المسائل مركَّب على قضايا من الغيب وفي علم الله ما استأثر الله بعلمه. وما إلينا نشأة التاريخ،فيكون علينا أن نصيب في الحكم عليه.

(1)نقول في مستقبل العربيّة إن الماضي كان مستقبلاً قبل أن يصير ماضياً، فالعوامل الطبيعية التي أثّرت في بنائه هي نفسها التي تعين على استكناه ما بعده مما لا يزال مستقبلاً إن نفذ الرأي إلى ما بعده. والتاريخ في الحقيقة كأنه ينبت من القبور حيث دُفِنت القرائح والأفكار والأصول الإنسانية التي يرث منها الخلق. وهذه اللغة العربيّة تمتاز على اللغات كافّة بارتباطها إلى الأصلين العظيمين الخالدين: القرآن، والحديث. وهما على وجه واحد أوَّل الدهر وآخر الدهر، وإليهما مناط العقائد في العالم الإسلامي كله. فقد جعلا هذه اللغة لا سبيل للغة عليها من حيث هي، كما أنه لا سبيل لدين على دينها من حيث هو، وهذا مما يهوّن الخطب فيها إن ضعفت أو عدت عليها بعض عوادي الاجتماع، فإن الحياة المستكنة في أصولها لا تلبث أن تشدّ منها، وتذهب بأمراضها عند أيسر العلاج. وليس يخفى أن الكيان الإنساني قائم على القوى الأدبية. وأصل هذه القوى في العالم الإسلامي هو القرآن، وهو كذلك أصبح من وجوه كثيرة كأنه أصل اللغة. فما دام كل انقلاب اجتماعي فينا لا يأتي على هذا الأصل فهو لن يأتي على تلك

اللغة. وإذا كان الحَيّ لا يُبنى إلا من داخله فهو لا يُهدَم إلا من داخله.

فالمسألة، إذن، من مسائل الضعف والقوّة لا من مسائل موت اللغة وحياتها. وههنا أصلان عظيمان يستند إليهما الباحث في مستقبل العربيّة، وقَلَّما يلتفت إليها أحد: فالأول أن سواد الذين يتكلّمون بهذه اللغة هم من أبعد الشعوب أعرافاً في تاريخ المدنيّة وذهاباً في عصورها وتغلغُلاً في طبقات الميراث الإنسانية. وذلك أصل عظيم في الاحتفاظ بها بعد أن صارت قطعة من تاريخهم وكأنها عناية إلهية بهذه اللغة أن لا تستفيض إلا في تلك الشعوب، والثاني أن في العربيّة نفسها نوعاً من الاستهواء بما فيها من جمال التركيب، وروعة اللفظ، وحسن الأداء إلى غيرها من المميّزات المعروفة حتى أن غير أهلها ليكونون في حبِّهم إياها أحقّ بها من أهلها.

وظاهر أن لكلّ لغة قوية وجهاً سياسياً كما أن لكل سياسة قوية وجهاً لغوياً.. فالشعوب قائمة على الاختلاف والتنازع. وهنا موضع الضعف والقوّة. فإن نهض أهل العربيّة، وكتبت لهم السلامة من تحكُّم المستعمرين، وجَنَّبهم الله هذه المحن التي هي فضائل السياسة فتلك نهضة العربيّة نفسها، وإن ضعفوا فذلك ضعفها. وما أراها إلا ستنهض في مصر وسوريا نهضة من يستجمع. وربما شهد الناس دهراً يصلح أن يسمّى فيه ما بين العراق إلى الأطلانطيق (جمهورية اللغة العربيّة). وما هو ببعيد. والله غالب على أمره.

(2) وأما تأثير التمدين الأوروبي والروح الغربيّة في هذه اللغة فلن يكون إلا على السابقة التي سلفت من تأثير علوم الفرس واليونان وغيرها. ولا ضرر منه على اللغة، فهي قوية متينة تحمل ذلك وتستلحقه، وتأتينا به مستعرباً، وإن نبت في لندن وباريس وبرلين وغيرها كما جاءَت بمثله

من قبل. وما دام فينا حفاظ ونزعة صحيحة فلا نخشى على لغتنا ضرورة من الضرورات لأن في كل تاريخ حَيّ ممرّاً لمثل هذه الضرورة تبدأ فيه من جهة، وتنتهي منه في جهة. وما من شعب هو كل الناس.

(3)وأما تأثير التطوُّر السياسي الحاضر فما أرى أسباب الحكم عليه قد استجمعت بعد والأقدار لا تزال «في المداولة».. ومن قال لا أدري فقد أفتى. والله يحكم لا مُعقب لحكمه.

(4) ولست أرى ما يمنع انتشار اللغة، وأن تُعَلَّم بها جميع العلوم؛ فإن هذا شرط في إحيائها وإحيائنا. ومتى بدأت مصر بذلك - وهي بادئة إن شاء الله - «فلا تحسبا هنداً لها الحسن وحدها»، بل كل غانية هند.

(5) بيد أن العربيّة لا يأتي لها بحال من الأحوال أن تغلب على كل اللهجات العامية، وتستغرقها، وتأخذها بدين التوحيد، فما ذلك في طبيعتها ولا هو في طبيعة الناس، ولكنها تُفصح من هذه اللهجات. وهذا حسبُنا.

(6) وأما خير الوسائل في إحيائها فهي عندي:

(1) إنشاء المجمع العلمي العربي في مصر على أن يكون كمجامع أوروبا وعلى أن يعمل عملها، ويأخذ بسنَّتها.. فأما فئة كهذه التي أطلقوا عليها اسم المجمع اللغوي وجرت باسم الله مرساها.. فإنما هي كتب في دار الكتب.

(2) إصلاح تعليم العربيّة وآدابها، ونبذ هذه الدفاتر الغثّة التي يدرسون فيها، والرجوع إلى طريقة الرواة المتقدِّمين (الطريق الأنسكلوبيدية) مما يجمع الفن والأدب واللغة والبلاغة، ويطبع الناشئ على المَلَكة الصحيحة، ويستحدث له ذوقاً في لغته، ويقيم الكتب نفسها مقام

العرب والرواة الذين كانوا هم أصل دولة البلاغة.

(3) تعليم العلوم كلها (إلا علوم اللغات وآدابها) بالعربيّة، وتعريب ماليس فيها من ذلك ونشره، ونشر الكتب العربيّة القيِّمة.

(4) أن تعمل الأمّة على إنبات كتّابها وشعرائها وآبائها وتفريغهم للعمل الذي يُسِّروا له. وطُرُق ذلك معروفة.

(5) عناية الصحف الكبرى بلغتها وكتابتها وأساليبها، فهي اليوم في الأفق اللغوي كالهواء صحّة أو وباء، وأن تحفل بالأدب، وتبذل فيه. ولا نخصّ السياسة دونه بشيء فهو سياسة ألسنتنا وقوميّتنا وتاريخنا.

(6) إيجاب حفظ القرآن أو أكثره في المدارس ولو على المسلمين وحدهم مع درس الوجوه التي يُؤدّى بها تأدية صحيحة. وهذا وحده أساس متين إن لم نحكم البناء عليه. فما أقرب أن يتداعى البناء كلّه وهناً وتراخياً. والأمر يومئذ لله.

مصطفى صادق الرافعي

«مستهل»

وهو من أكابر علماء اللغة العربيّة

(1) عندنا أن مستقبل اللغة العربيّة حسن، أحسن مما مضى عليها في الأيام الماضية حتى إننا لنتفاءل بأنها تعود إلى حياة جديدة لم يعهد لها مثيل في التاريخ، بل لتطاول أيام عزِّها في عصر العباسيين.

(2) تأثير التمدُّن الأوروبي وروحه الغربي فيها من أحسن ما يكون، بل ومن أحسن ما يمكن، وذلك لأن من امتزاج الواحد بالآخر تنشأ حياة جديدة شبيهة بحياة شجرة قديمة أخرجت شطأ حديثاً، فركّب عليه من غصن شجرة أخرى غضّة، فتولّد من هذا التركيب شجرة جديدة الماء والإهاب والحياة، ومن ثم جديدة الثمر، بديع اللون، زكي الرائحة، لذيذ الذوق.

(3) يكون تأثير التطوُّر السياسي الحاضر من قبيل تأثير إطلاق سراح أسير كان مقيَّداً بأغلال وسلاسل ضخمة، فأخذ بعد ذلك يسرح ويمرح ويتمتَّع بحريّته التي لا قبيل لها من حكام هذه الدنيا، فالعربيّة بعد هذا اليوم حرّة لا مستعبِد لها ولا مستأسِر.

(4) نعم إن انتشارها في المدارس العالية وغير العالية لابُدَّ منه، وإن كان هذا الأمر يتطلَّب زمناً مديداً. وأما أن جميع العلوم تُعَلَّم بها فليس مانعاً لانتشارها. وإنما المانع ناشئ من القوة التي تتصرَّف في حياتها أو مماتها. وإلا فقول عجز اللغة عن تأدية المكتشفات العصرية والمستحدثات الكثيرة هو مانع عظيم في سبيل هذه الغاية هو قول فارغ لأنه إذا صَعُب (ولا نقول امتنع) اتخاذ ألفاظ عربية جديدة تؤدّي

المعنى المطلوب، فتعريب الأعجميات ونقلها إلى العربيّة غير ضار بحيويَّتها. على أننا من حزب الذين يقولون بأنه يمكن للناطقين بالضاد وضع كَلِم جديدة للأشياء الحديثة مهما اختلف نوعها؛ إلا أنه يجب لتحقيق ما في الصدورالتواطؤ والتساند ليس إلا.

(5) إن اللغة الفصحى لا تتغلَّب على اللهجات العامّيّة أبداً مهما اتُّخِذ من الوسائل لقتلها؛ لما فيها من نشاط الحياة اليومية، وإنما تكسر حدتها وتقلِّل من فسادها. لكن ينشأ في الديار العربيّة لغة واحدة أساسها اللغة الفصحى ولبابها اللفظ الفصيح المأنوس الاستعمال، المألوف الصوت، القصير المقاطع، الحسن الوزن السهل المأخذ والتداول.

(6) خير الوسائل لإحيائها هي المدارس والمطبوعات بأنواعها وتشجيع المؤلِّفين بجوائز تُعطى لهم، أو يخصِّصها لهم أكارم العرب وأجاويدهم، أو لا أقلّ من مساعدتهم بالمال ولو من وقت إلى وقت، وحمل أهل العقد والحلّ على بثّها ونشرها، وإذا أمكن عقد مجمع لغوي مؤلّفة أعضاؤه من علماء مختلف الديار العربيّة، فهذا من أقوى الوسائل لإحيائها. لكن أنفع تلك الوسائل هي المدارس والمطبوعات وإن لم يكن مجمع؛ وذلك لأننا رأينا اللغتين اليونانية والأرمنية انتشرتا بسرعة غريبة، وعادتا إلى حياة جديدة بفتح المدارس الأهلية وتعميم المؤلّفات، وليس لهما مجمع لغوي. ونشاهد هذا أيضاً في لغتنا، لأننا إذا قابلنا ما كانت عليه قبل مائة سنة بما عليه الآن حكمنا أن مستقبل لغتنا زاهر لا محالة.

«مستهل»

جبران خليل جبران

نابغة المهجر

(1) ما هو مستقبل اللغة العربيّة؟

إنما اللغة مظهر من مظاهر قوّة الابتكار في مجموع الأمّة، أو ذاتها العامة، فإذا هجعت قوّة الابتكار توقَّفت اللغة عن مسيرها، وفي الوقوف التقهقر. وفي التقهقر الموت والاندثار.

إذاً فمستقبل اللغة العربيّة يتوقَّف على مستقبل الفكر المبدع الكائن -أو غير الكائن- في مجموع الأمم التي تتكلّم اللغة العربيّة.. فإن كان ذلك الفكر موجوداً كان مستقبل اللغة عظيماً كماضيها، وإن كان غير موجود فمستقبلها سيكون كحاضر شقيقتيها السريانية والعبرانية.

وما هذه القوة التي ندعوها قوة الابتكار؟

هي في الأمّة عزم دافع إلى الأمام. هي في قلبها جوع وعطش وشوق إلى غير المعروف. وهي في روحها سلسلة أحلام تسعى إلى تحقيقها ليلاً نهاراً، ولكنها لا تحقِّق حلقة من أحد طرفيها إلا أضافت الحياة حلقة جديدة في الطرف الآخر. هي في الأفراد النبوغ وفي الجماعة الحماسة، وما النبوغ في الأفراد سوى المقدرة على وضع ميول الجماعة الخفيّة في أشكال ظاهرة محسوسة. ففي الجاهلية كان الشاعر يتأهَّب لأن العرب كانوا في حالة التأهُّب، وكان ينمو ويتمدَّد أيام المخضرمين لأن العرب كانوا في حالة النموّ والتمدُّد، وكان يتشعَّب أيام المولّدين لأن الأمّة الإسلامية كانت في حالة التشعُّب، وظل الشاعر يتدرَّج، ويتصاعد، ويتلوَّن فيظهر آناً كفيلسوف، وآونة كطبيب، وأخرى كفلكي

حتى راود النعاس قوة الابتكار في الأمم العربيّة فنامت، وبنومها تحوَّل الشعراء إلى ناظمين، والفلاسفة إلى كلاميين، والأطباء إلى دجّالين، والفلكيّون إلى منجِّمين.

إذا صحّ ما تقدَّم كان مستقبل اللغة العربيّة رهن قوّة الابتكار في مجموع الأمم التي تتكلَّمها، فإن كان لتلك الأمم ذات خاصة (أو وحدة معنوية)، وكانت قوة الابتكار في تلك الذات قد استيقظت بعد نومها الطويل كان مستقبل اللغة العربيّة عظيماً كماضيها. وإلا فلا.

***

(2) وما عسى أن يكون تأثير التمدين الأوروبي والروح الغربيّة فيها؟

إنما(التأثير) شكل من الطعام تتناوله اللغة من خارجها، فتمضغه، وتبتلعه، وتحوِّل الصالح منه إلى كيانها الحَيّ كما تحوِّل الشجرة النور والهواء وعناصر التراب إلى أفنان فأوراق فأزهار فأثمار.

ولكن، إذا كانت اللغة بدون أضراس تقضم ولا معدة تهضم فالطعام يذهب سدى، بل ينقلب سمّاً قاتلاً: وكم من شجرة تحتال على الحياة وهي في الظلّ، فإذا ما نُقِلت إلى نور الشمس ذبلت وماتت. وقد جاء «من له يُعطى ويُزاد. ومَن ليس له يؤخذ منه».

وأما الروح الغربيّة فهي دور من أدوار الإنسان وفصل من فصول حياته، وحياة الإنسان موكب هائل يسير دائماً إلى الأمام، ومن ذلك الغبار الذهبي المتصاعد من جوانب طريقه تتكوَّن اللغات والحكومات والمذاهب: فالأمم التي تسير في مقدمة هذا الموكب هي المبتكِرة، والمبتكِر مؤثّر، والأمم التي تمشي في مؤخِّرته هي المقلِّدة، والمقلِّد

يتأثّر، فلمّا كان الشرقيون سابقين والغربيون لاحقين كان لمدنيَّتا التأثير العظيم على لغاتهم، وهنا قد أصبحوا هم السابقين، وأمسينا نحن اللاحقين، فصارت مدنيَّتهم، بحكم الطبع، ذات تأثير عظيم على لغتنا وأفكارنا، وأخلاقنا.

بيد أن الغربيين كانوا في الماضي يتناولون ما نطبخه، فيمضغونه، ويبتلعونه محوِّلين الصالح منه إلى كيانهم الغربي، أما الشرقيون في الوقت الحاضر فيتناولون ما يطبخه الغربيون، ويبتلعونه، ولكنه لا يتحوَّل إلى كيانهم الشرقي، بل يحوِّلهم إلى شبه غربيين، وهي حالة أخشاها وأتبرَّم منها لأنها تبيِّن لي الشرق تارة كعجوز فَقَدَ أضراسه، وطوراً كطفل بدون أضراس!.

إن روح الغرب صديق وعدوّ لنا: صديق إذا تمكَّنّا منه، وعدوّ إذا تمكَّن منا. صديق إذا فتحنا له قلوبنا وعدوّ إذا وهبنا له قلوبنا. صديق إذا أخذنا منه ما يوافقنا وعدوّ إذا وضعنا نفوسنا في الحالة التي توافقه.

***

(3) وما يكون تأثير التطوُّر السياسي الحاضر في الأقطار العربيّة؟

قد أجمع الكتّاب والمفكِّرون في الغرب والشرق على أن الأقطار العربيّة في حالة التشويش السياسي والإداري والنفسي. ولقد اتَّفَق أكثرهم على أن التشويش مجلبة الخراب والاضمحلال.

أما أنا فاسأل: هل هو تشويش أم ملل؟

إن كان مللاً فالملل نهاية كل أمّة وخاتمة كل شعب. الملل هو الاحتضار في صورة النعاس، والموت في شكل النوم.

وأن كان بالحقيقة تشويشاً فالتشويش في شرعي ينفع دائماً لأنه يبين ما كان خافياً في روح الأمّة، ويبدِّل نشوتها بالصحو وغيبوبتها باليقظة ونظير عاصفة تهزّ بعزمها الأشجار لا لتقتلعها، بل لتكسر أغصانها اليابسة، وتبعثر أوراقها الصفراء. وإذا ما ظهر التشويش في أمّة لم تزل على شيء من الفطرة فهو أوضح دليل على وجود قوّة الابتكار في أفرادها والاستعداد في مجموعها.. إنما السديم أول كلمة من كتاب الحياة، وليس بآخر كلمة منه. وما السديم سوى حياة مشوّشة.

إذاً فتأثير التطور السياسي سيحوِّل ما في الأقطار العربيّة من التشويش إلى نظام، وما في داخلها من الغموض والإشكال إلى ترتيب وألفة، ولكنه لا، ولن يبدِّل مللها بالوجد وضجرها بالحماسة: إن الخزّاف يستطيع أن يصنع من الطين جرّة للخمر أو للخَلّ، ولكنه لا يقدر أن يصنع شيئاً من الرمل والحصى.

***

(4) هل يعمّ انتشار اللغة العربيّة في المدارس العالية وغير العالية وتُعَلّم بها جميع العلوم؟

لا يعمّ انتشار اللغة العربيّة في المدارس العالية وغير العالية حتى تصبح تلك المدارس ذات صبغة وطنية مجردة، ولن تُعلَّم بها جميع العلوم حتي تنتقل المدارس من أيدي الجمعيات الخيرية واللجان الطائفية والبعثات الدينية إلى أيدي الحكومات المحلِّيّة.

ففي سوريا مثلاً كان التعليم يأتينا من الغرب بشكل الصدقة، وقد كنا ولم نزل نلتهم خبز الصدقة لأننا جياع متضوِّرون، ولقد أحيانا ذلك الخبز، ولما أحيانا أماتنا: أحيانا لأنه أيقظ بعض مداركنا، ونبَّه عقولنا

قليلاً، وأماتنا لأنه فَرَّقَ كلمتنا وأضعف وحدتنا، وقطع روابطنا، وأبْعَدَ ما بين طوائفنا حتى أصبحت بلادنا مجموعة مستعمرات صغيرة ومختلفة الأذواق متضاربة المشارب. كل مستعمرة منها تشدّ في حبل إحدى الأمم الغربيّة، وترفع لواءَها، وتترنّم بمحاسنها وأمجادها؛ فالشاب الذي تناول لقمة من العلم في مدرسة أميركية قد تحوَّل بالطبع إلى معتمد أميركي. والشاب الذي تجرَّع رشفة من العلم في مدرسة يسوعية صار سفيراً فرنسياً. والشاب الذي لبس قميصاً من نسيج مدرسة روسية أصبح ممثّلاً لروسيا.. إلى آخر ما هناك من المدارس وما تخرِّجه في كل عام من الممثِّلن والمعتمدين والسفراء. وأعظم دليل على ما تقدَّم اختلاف الآراء وتبايُن المنازع في الوقت الحاضر في مستقبل سوريا السياسي. فالذين درسوا بعض العلوم باللغة الإنكليزية يريدون أميركا وإنكلترا وصيّة على بلادهم، والذين درسوها باللغة الفرنسية يطلبون فرنسا أن تتولّى أمرهم، والذين لم يدرسوا بهذه اللغة أو بتلك لا يريدون هذه الدولة ولا تلك، بل يتبعون سياسة أدنى إلى معارفهم وأقرب إلى مداركهم.

وقد يكون ميلنا السياسي إلى الأمّة التي نتعلَّم على نفقتها دليلاً على عرفان الجميل في نفوس الشرقيين، ولكن ما هذه العاطفة التي تبني حجراً من جهة واحدة، وتهدم جداراً من الجهة الأخرى؟ ما هذه العاطفة التي تستنبت زهرة، وتقتلع غابة؟ ما هذه العاطفة التي تحيينا يوماً، وتميتنا دهراً؟

ان المحسنين الحقيقيين وأصحاب الأريحية في الغرب لم يضعوا الشوك والحسك في الخبز الذي بعثوا به إلينا، فهم بالطبع قد حاولوا نفعنا لا الضرر بنا، ولكن كيف تولّدَ ذلك الشوك؟ ومن أين أتى ذلك الحسك؟ هذا بحث آخر أتركه إلى فرصة أخرى.

نعم سوف يعمّ انتشار اللغة العربيّة في المدارس العالية وغير العالية وتُعَلَّم بها جميع العلوم، فتتوحَّد ميولنا السياسية، وتتبلور منازعها القومية لأن في المدرسة تتوحَّد الميول، وفي المدرسة تتجوهر المنازع، ولكن لا يتم هذا حتى يصير بإمكاننا تعليم الناشئة على نفقة الأمّة. لا يتمّ هذا حتى يصير الواحد منا ابناً لوطن واحد بدلاً من وطنين متناقضين أحدهما لجسده والآخر لروحه. لا يتمّ هذا حتى نستبدل خبز الصدقة بخبز معجون في بيتنا، لأن المتسوِّل المحتاج لا يستطيع أن يشترط على المتصدِّق الأريحي. ومن يضع نفسه في منزلة الموهوب لا يستطيع معارضة الواهب، فالموهوب مُسَيَّر دائماً، والواهب مُخَيَّر أبداً.

***

(6) وهل تتغلَّب (اللغة العربيّة الفصحى) على اللهجات العامَيّة المختلفة، وتوحِّدها؟

ان اللهجات العامية تتحوَّر، وتتهذَّب، ويُدَلّك الخشن فيها فيلين، ولكنها لا تغلب، ولن تغلب - ويجب ألّا تغلب - لأنها مصدر ما ندعوه فصيحاً من الكلام ومنبت ما نعدّه بليغاً من البيان.

إن اللغات تتبع، مثل كل شيء آخر، سنّة بقاء الأنسب، وفي اللهجات العامية الشيء الكثير من الأنسب الذي سيبقى لأنه أقرب إلى فكرة الأمّة وأدنى إلى مرامي ذاتها العامة. قلت إنه سيبقى، وأعني بذلك أنه سيلتحم بجسم اللغة، ويصير جزءًا من مجموعها. لكل لغة من لغات الغرب لهجات عامّيّة، ولتلك اللهجات مظاهر أدبية وفنية لا تخلو من الجميل المرغوب والجديد المبتكَر، بل في أوروبا وأميركا طائفة من الشعراء الموهوبين الذين تمكّنوا من التوفيق بين العامي والفصيح في قصائدهم وموشَّحاتهم فجاءت بليغة ومؤثِّرة: وعندي أن في الموّال،

والزجل، و«العتابا»، و«المعنّى» من الكنايات المستجدَة والاستعارات المستملَحة والتعابير الرشيقة المستنبَطة ما لو وضعناه بجانب تلك القصائد المنظومة بلغة فصيحة، والتي تملأ جرائدنا ومجلّاتنا، لبانت كباقة من الرياحين بقرب رابية من الحطب، أو كسرب من الصبايا الراقصات المترنِّمات قبالة مجموعة الجثث المحنَّطة.

لقد كانت اللغة الإيطالية الحديثة لهجة عامّية في القرون المتوسّطة، وكان الخاصة يدعونها بلغة «الهمج»، ولكن لما نظم بها دانتي، وبتراك، وكامونس، وفرنسيس داسيزي قصائدهم وموشَّحاتهم الخالدة أصبحت تلك اللهجة لغة إيطاليا الفصحى، وصارت اللاتينية بعد ذلك هيكلاً يسير، ولكن في نعش، على أكتاف الرجعيين.. وليست اللهجات العامية في مصر وسورية والعراق أبعد عن لغة المعري والمتنبي من لهجة «الهمج» الإيطالية عن لغة أوفيدي وفرجيل. فإذا ما ظهر في الشرق الأدنى عظيم ووضع كتاباً عظيماً في إحدى تلك اللهجات تحوَّلت هذه إلى لغة فصحى. بيد أني أستبعد حدوث ذلك في الأقطار العربيّة لأن الشرقيين أشدّ ميلاً إلى الماضي منهم إلى الحاضر أو المستقبل؛ فهم المحافظون على معرفة منهم أو على غير معرفة. فإن قام كبير بينهم لزم في إظهار مواهبه السبل البيانية التي سار عليها الأقدمون، وما سبل الأقدمين سوى أقصر الطرقات بين مهد الفكر ولحده.

***

(7) ما هي خير الوسائل لإحياء اللغة العربيّة؟

إن خير الوسائل، بل الوسيلة الوحيدة لإحياء اللغة هي في قلب الشاعر، وعلى شفتيه وبين أصابعه؛ فالشاعر هو الوسيط بين قوّة الابتكار والبشر، وهو السلك الذي ينقل ما يحدثه عالِم النفس إلى عالِم البحث، وما

يقرِّره عالم الفكر إلى عالم الحفظ والتدوين. الشاعر أبو اللغة وأمّها، تسير حيثما يسير، وتربط أينما يربض، وإذا ما قضى جلست على قبره باكية منتحبة حتى يمرّ بها شاعر آخر ويأخذ بيدها.

وإذا كان الشاعر أبو اللغة وأمها فالمقلِّد ناسج كفنها وحفّار قبرها، أعني بالشاعر كلّ مخترعٍ كبيراً أو صغيراً، وكل مكتشف قوياً كان أو ضعيفاً، وكل مختلِق عظيماً كان أو حقيراً، وكل محبّ للحياة المجرَّدة إماماً كان أم صعلوكاً، وكل من يقف متهيِّباً أمام الأيام والليالي فيلسوفاً كان أو ناطوراً للكروم.

أما المقلِّد فهو الذي لا يكتشف شيئاً، ولا يختلق أمراً، بل يستمدّ حياته النفسية من معاصريه، ويصنع أثوابه المعنوية من رُقَع يجزّها من أثواب مَنْ تقدَّمَه.

أعني بالشاعر ذلك الزارع الذي يفلح حقله بمحراث يختلف ولو قليلاً عن المحراث الذي ورثه عن أبيه، فيجيء بعده من يدعو المحراث الجديد باسم جديد، وذلك البستاني الذي يستنبت بين الزهرة الصفراء والزهرة الحمراء زهرة ثالثة برتقالية اللون، فيأتي بعده من يدعو الزهرة الجديدة باسم جديد، وذلك الحائك الذي ينسج على نوله نسيجاً ذا رسوم وخطوط تختلف عن الأقمشة التي يصنعها جيرانه الحائكون، فيقوم بعده من يدعو نسيجه هذا باسم جديد.

أعني بالشاعر الملاَّح الذي يرفع لسفينة ذات شراعين شراعاً ثالثاً، والبنّاء الذي يبني بيتاً ذا بابين ونافذتين بين بيوت كلّها ذات باب واحد ونافذة واحدة، والصبّاغ الذي يمزج الألوان التي لم يمزجها أحد قبله فيستخرج لوناً جديداً، فيأتي بعد الملاَّح والبنّاء والصبّاغ من يدعو ثمار أعمالهم بأسماء جديدة، فيضيف بذلك شراعاً إلى سفينة اللغة،

ونافذة إلى بيت اللغة، ولوناً إلى ثوب اللغة.

أما المقلّد فهو ذاك الذي يسير من مكان إلى مكان على الطريق التي سار عليها ألف قافلة، ولا يحيد عنها مخافة أن يتيه ويضيع، ذلك الذي يتبع بمعيشته وكسب رزقه ومأكله ومشربه وملبسه تلك السبل المطروقة التي مشى عليها ألف جيل وجيل فتظلّ حياته كرجع الصدى، ويبقى كيانه كظلّ ضئيل لحقيقة قصيّة لا يعرف عنها شيئاً، ولا يريد أن يعرف.

أعني بالشاعر ذلك المتعبّد الذي يدخل هيكل نفسه فيجثو باكياً فرحاً نادياً مهلّلاً مصغياً مناجياً، ثم يخرج وبين شفتيه ولسانه أسماء وأفعال وحروف واشتقاقات جديدة لأشكال عبادته التي تتجدَّد في كل يوم وأنواع انجذابه التي تتغيَّر في كلّ ليلة، فيضيف بعمله هذا وتراً فضياً إلى قيثارة اللغة وعوداً طيباً إلى موقدها.

أما المقلِّد فهو الذي يردِّد صلاة المصلّين وابتهال المبتهلين بدون إرادة ولا عاطفة، فيترك اللغة حيث يجدها والبيان الشخصي حيث لا بيان ولا شخصية.

أعني بالشاعر ذاك الذي إن أحبّ امرأة انفردت روحه، وتنحَّت عن سبيل البشر لتلبس أحلامها أجساداً من بهجة النهار وهول الليل وولولة العواصف وسكينة الأودية، ثم عادت لتضفر من اختياراتها إكليلاً لرأس اللغة، وتصوغ من اقتناعها قلادة لعنق اللغة، أما المقلِّد فمقلِّد حتى في حُبّه وغزله وتشبيبه، فإن ذكر وجه حبيبته وعنقها قال «بدر وغزال»، وإن خطر على باله شعرها وقدمها ولحظها قال «ليل وغصن بانٍ وسهام»، وإن شكى قال «جفنٌ ساهرٌ وفجرٌ بعيد وعزولٌ قريب» وإن شاءَ أن يأتي بمعجزة بيانية قال «حبيبتي تستمطر لؤلؤ الدمع من نرجس العيون لتسقي ورد الخدود، وتعضّ على عناب أناملها ببرد أسنانها». يترنَّم

صاحبنا الببغاء بهذه الأغنية العتيقة وهو لا يدري أنه يسمِّم ببلادته دسم اللغة، ويمتهن بسخافته وابتذاله شرفهاونبالتها.

قد تكلَّمت عن المستنبَط ونفعه والعقيم وضرره، ولم أذكر أولئك الذين يصرفون حياتهم بوضع القواميس وتأليف المطوّلات وتشكيل المجامع اللغوية - لم أقل كلمة عن هؤلاء لاعتقادي بأنهم كالشاطئ بين مدّ اللغة وجزرها، وأن وظيفتهم لا تتعدى حَدّ الغربلة - والغربلة وظيفة حسنة ولكن ما عسى يغربل المغربلون إذا كانت قوّة الابتكار في الأمّة لا تزرع غير الزؤان، ولا تحصد إلا الهشيم، ولا تجمع على بيادرها سوى الشوك والقطرب؟

أقول ثانية إن حياة اللغة وتوحيدها وتعميمها وكل ما له علاقة بها قد كان وسيكون رهن خيال الشاعر. فهل عندنا شعراء؟

نعم عندنا شعراء. وكل شرقي يستطيع أن يكون شاعراً في حقله وفي بستانه وأمام نوله وفي معبده وفوق منبره وبجانب مكتبته.

كل شرقي يستطيع أن يعتق نفسه من سجن التقليد والتقاليد، ويخرج إلى نور الشمس، فيسير في موكب الحياة. كلّ شرقي يستطيع أن يستسلم إلى قوة الابتكار المختبئة في روحه، تلك القوّة الأزلية الأبدية التي تقيم من الحجارة أبناءً لله.

أما أولئك المنصرفون إلى نظم مواهبهم ونثرها فلهم أقول: ليكن لكم من مقاصدكم الخصوصية مانعاً عن اقتفاء أثر المتقدِّمين، فخير لكم وللغة العربيّة أن تبنوا كوخاً حقيراً من ذاتكم الوضعية من أن تقيموا صرحاً شاهقاً من ذاتكم المقتبسة. ليكن لكم من عزّة نفوسكم زاجراً عن نظم قصائد المديح والرثاء والتهنئة، فخير لكم وللغة العربيّة أن

تموتوا مهمَلين محتقَرين من أن تحرقوا قلوبكم بخوراً أمام الأنصاب والأصنام. ليكن لكم من حماستكم القومية دافعاً إلى تصوير الحياة الشرقية بما فيها من غرائب الألم وعجائب الفرح، فخير لكم وللغة العربيّة أن تتناولوا أبسط ما يتمثَّل لكم من الحوادث في محيطكم، وتلبسوها حلّة من خيالكم من أن تعرّبوا أجلّ وأجمل ما كتبه الغربيون.

جبران خليل جبران

أنطون الجميّل

منشئ الزهور

مستقبل اللغة العربيّة مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالمستقبل السياسي والعمراني للأقوام الذين يتكلَّمون بها.

أما من الوجهة السياسية فمعروف أن لا قيام للغة إلا بقيام دولة تؤيِّدها، وتأخذ بناصرها. وعلى قدر ما يكون نفوذ الدولة وبسطة أملاكها ونموّ عمرانها بين الدول، يكون مقام لغتها بين اللغات: هكذا كان شأن اليونانية في عصر أبطال الإغريق، واللاتينية على عهد قيصر، والعربيّة في زمن بني العباس، والفرنسوية في عصر لويس الرابع عشر، والإنكليزية في أيامنا هذه، حتى أن مؤتمر الصلح الأخير قد أحلَّ هذه اللغة إلى جانب اللغة الفرنسوية في مفاوضاته وقراراته. وقد احتج بعض النواب في الندوة الفرنسوية على ذلك فأجاب مسيو كليمنسو في جلسة 26 سبتمبر الماضي بما فيه الكفاية لتبرير إدخال الإنكليزية إلى جانب الفرنسوية كلغة رسمية.

بل إن اللغة العربيّة نفسها لم تجد مؤئلاً لها في القرن الغابر وأول القرن الحاضر غير القطر المصري، حتى أَمَّه حملة الأقلام وأرباب النهضة الفكرية من كل الأقطار الشرقية. وما ذلك إلا لأن مصر كانت أوسع الأقطار العربيّة استقلالاً وأبسطها جاهاً. أما من الوجهة العمرانية فلا يخفى أن الفائدة من أكبر البواعث على تعلُّم لغة من اللغات. وقد رأينا أن وجود العساكر البريطانية في مصر وإقبالها على معاملة الناس في البيع والشراء مدة سنوات قليلة كان أدعى إلى انتشار الإنكليزية في وادي النيل من سعي المحتلّين مدة ثلث قرن لنشر لغتهم في هذه

الربوع. فأصبحنا نسمع الباعة والأولاد في الشوارع ينادون على سلعهم بكلام هو خليط من العربيّة والإنكليزية مثل «الفايف بالهاف يا متشز» أي: «خمسة علب بنصف قرش يا كبريت! وما أشبه ذلك. حتى صار بائع الجرائد وماسح الأحذية أجرأ على الكلام بالإنكليزية من الذين درسوها.

وعليه فإذا أتيح للأقوام الناطقين بالضاد النجاح في قضيتهم السياسية، وأتيح لهم بعد ذلك تعمير بلادهم وإنهاض زراعتها وصناعتها وترويج تجارتها فيكون للغة العربيّة مستقبل زاهٍ زاهر، لا سيما وأن الذين يعرفونها - أو يجب أن يعرفوها - لا يقلّون عن ثلاثمئة مليون، وإلا فإننا نعتقد - وقد نكون مخطئين - أن مصير اللغة العربيّة حتى في العواصم العربيّة هو ما صارت إليه بين مسلمي الهند، فتصبح لغة الكتب المقدسة كالسريانية، والعبرية، واللاتينية.

وفي هذا المجال لا يسعنا إلا التنويه بفضل المهاجرين اللبنانيين والسوريين إلى العالم الجديد، فإن عددهم يناهر نصف المليون في الأميركيّتين الشمالية والجنوبية. وقد عرفوا أن يحتفظوا بلغتهم، فنشروا بها الجرائد اليومية السياسية والمجلّات الأدبية العلمية حتى إن بعض صحفهم يُعَدّ من أرقى ما يُنشَر باللغة العربيّة.

أما تأثير التمدين الأوروبي الحديث فهو واقع - لا محالة - بسبب سهولة المواصلات وامتزاج الشعوب وارتباط مرافق البشر بعضها ببعض. لا بل قد بدت طلائع هذا التأثير في ربوع الشام ولبنان قبل سواها لانتشار المدارس الأجنبية فيها. وليس في ذلك ما يؤسَف له إذا عرفنا كيف نستفيد من الأقوام التي نختلط بها. فإن العصر الذي أقبل فيه كتّاب العرب على نقل مؤلّفات اليونان والرومان والفرس كان العصر الذهبي

للآداب العربيّة.

أما اللهجات العامّية فلا نعتقد باضمحلالها وتغلُّب اللغة الفصحى عليها؛ فهي موجودة حتى بين الأقوام الذين يقطنون إقليماً أو صقعاً واحداً كجزر بريطانيا أو بلاد فرنسا حيث تختلف لهجة سكّان الجنوب اختلافاً بيّناً عن لهجة سكان الشمال. فما قولك بالناطقين بالضاد الضاربين في الجزيرة، والعراق، ومصر، والسودان، والشام، وتونس والجزائر، والمغرب ..إلخ؟.

غير أن نشر اللغة الفصحى ونشر التعليم بين هذه الأقوام لَمِمّا يعمل على إزالة الكثير من هذه الفوارق؛ فالطبقة الراقية في مصر مثلاً أصبحت تتكلمَّ، بلا تكليف ولا تصنُّع، لغة مضبوطة تكاد تُكتَب.

ونختم هذه الأفكار المتناثرة التي أجملناها، ولم نفصِّلها لضيق المقام بقولنا إن الشعب الذي يقع في الأسر إذا عرف أن يحتفظ بلغته، فكأن مفتاح سجنه في يده يفلت منه متى شاء.

فعلينا والحالة هذه أن لا ننسى أن أساس كل نهضة قومية يجب أن يكون في المدرسة الصغيرة الابتدائية حيث ينبغي تعليم لغة البلاد وتاريخها.

أنطون الجميّل

نقولا الحداد

الكاتب الاجتماعي المعروف

حرصاً على شرط «الهلال» الأغرّ في أن تكون الأجوبة موجزة لا تتجاوز صفحة منه أجمل رأيي - إن صح لي رأي - فيما يأتي:

1- مستقبل اللغة العربيّة متوقِّف على ما يناله الناطقون بها من الاستقلال والحرّية القومية؛ فكلما اتّسعت دائرة استقلالهم اتَّسعت دائرة التعليم الأهلي. والتعليم الأهلي يقضي حتماً بتعليم اللغة الوطنية؛ لأن اللغة هي السائل الذي تتحلَّل فيه التصوُّرات والأفكار، والقالب الذي تُسبَك فيه الأخلاق والعادات. ومامن عامل طبيعي أو سبب منطقي يحمل القوم على العدول عن لغتهم وتكلُّف التفاهم بلغة أجنبية - اللهم - إلا العامل القهري. وهو ضعيف ومعدوم في حالة الاستقلال.

والواقع أن الأمم العربيّة سائرة في سبيل الاستقلال القومي كسائر الأمم لأن وجهة الهيئة الاجتماعية الطبيعية استقلال كلّ جماعة ذات وحدة قائمة بنفسها، وتحالف هذه الجماعات. وقد يكون السير في هذا السبيل بطيئاً، ولكنه حتميّ طبيعيّ.

2- وأما التمدين الأوروبي والروح الغربيّة فسيقضيان بتطوُّر اللغة العربيّة تطوُّراً يبعد أساليب التعبير فيها عن أساليب التعبير القديمة بمقتضى ما تتناوله العقول الشرقية من التصوُّرات الغربيّة، وما تستلزمه المعاني والأشياء المستجدّة من نحت الألفاظ اللائقة للتعبير عنها. ولابُدَّ أن يكون هذا النحت ارتجالاً بغير اتّفاق مدّة غير معيَّنة إلى أن يُقَيَّد بنظام اجتماعي في مجمع لغوي. واللغة العربيّة مرنة ولينة وغنية بالمواد فلا

يتعذَّر تكييفها بحسب تأثيرات التمدين الأوروبي والروح الغربيّة. وأما أن هذا التأثير حتميّ فلأن التمدين الأوروبي هو السائر في المقدِّمة في سبيل التطوُّر الاجتماعي العام. ولا مناص للأمم الشرقية من السير وراء أوروبا في هذا السبيل لأنها - وهي ضعيفة بإزاء أوروبا - يتعذَّر عليها أن تستنبط مدنيّة أخرى تجرّ بها العالم وراءها.

3- تُستَنتَج الفتوى على السؤال الثالث مما تقدَّم.

4- من الفتوى على السؤال الأوَّل يلزم حتماً أن تنتشر اللغة العربيّة في المدارس كلها، وأن تُعَلَّم بها العلوم. وانتشارها على هذا النحو يفتح باباً واسعاً للمطبوعات العربيّة،وبالتالي يعظم عدد قرّائها، وتترقّى صناعة القلم جدّاً.

5- متى صارت العربيّة لغة التعليم، وعمَّ التعليم الأهلي الأمّة كلها تغلب اللغة الفصحى على اللهجة العامية بحكم الطبع. ترى الشاهد على ذلك الآن في كلام المتعلِّمين والطلبة؛ فإن كلامهم يبتعد عن العامي، ويقرب إلى الفصيح.

6- أما إحياء اللغة فلا يُتَعَمَّل تعمُّلاً بوسيلة صناعية لأن وسيلته طبيعية، وهي ما تقدَّمَ قوله من استقلال الأمّة الذي يفضي إلى استقلال التعليم الأهلي. واستقلال التعليم يقضي باستعمال اللغة الوطنية فيه. فحياة اللغة موقوفة على إحياء الأمّة بروح الحرّيّة والاستقلال. فإلى الاستقلال!

نقولا حداد

أمين واصف بك

صاحب التآليف الأدبية والفلسفية

كان يُخشى على اللغة العربيّة فيما لو وقع الشرق في الاستعمار الأوروبي قبل اليوم. أما في القرن العشرين وما بعده فلا خوف عليها، بل لكلٍّ أن يقدِّر لها مستقبلاً زاهراً.

بقيت دولة الترك حامية للشرق من كل إغارة أجنبية عليه. وبالشعور الديني بقيت اللغة العربيّة حَيّة تحت كنفها ورعايتها بالرغم من جمود أهلها واستنامتهم. ظلت تحت رعايتها وسيوفها إلى أن استنارت العقول واستيقظ بعض أمم الشرق، وأعني الطوائف النصرانية؛ إذ دخل العلم الشرق على أيدي الرهبان. فأحجم المسلمون بادئ بدء، وأقدم النصارى وازدادوا بسطة في العلم والأدب المصري، وأنشأوا الجرائد والمجلّات محاكاة للغربيين، وترجموا إلى العربيّة طائفة صالحة من مصنفات الفرنج في العلم والتاريخ والأدب. وكان قد ظهر من قبل محمد علي الكبير، وشَغُفَ بالحضارة الأوروبية، فأَسَّسَ المدارس بالديار المصرية، وأرسل البعثات العلمية إلى أوروبا. ولقيام هذه النهضة ازدادت العناية باللغة العربيّة، فرقيت، وتهذبت حتى صارت لغة اليوم.

لغة اليوم لغة وسط بين العربيّة الوحشية والعربيّة العامية؛ بمعنى أن أهل العصور الأخيرة نَبَتْ أسماعهم عن الألفاظ الوحشية المهجورة التي لا تجد أثرها في غير كتب الأدب القديمة، ومالوا إلى اللغة السهلة المفهومة والألفاظ المقبولة المصقولة. أعني نزلوا بالفصحى قليلاً، ورفعوا العامية كثيراً، فكانت لغة الجرائد والمجلّات. وهي لغة اليوم ولغة المستقبل كذلك.

واللغة العربيّة لغة صالحة للعلم، ولا ينكر صلاحيتها إلا أهلُ السياسة.

وهذه مصنفات أهل العصر لم نجد من يشكو فقرها إلا من حيث حاجتها إلى مجمع لغوي لاختيار مصطلحات العلوم والفنون والصناعات؛ وهو أمر سهل في اللغة بطريق المجاز والاشتقاق والنحت والتعريب. فلا جناح أن يُعَرَّب اللفظ الأعجمي كما يفعل أهل أوروبا بلغاتهم. وكما فعل من سَبَقَنا من أهل العربيّة. فقالوا: الإبريق، والطشت، والطبق، والياقوت، والبلّور. وكلّها فارسيّة. والفردوس والبستان، والقسطاس، والقنطار، والقنطرة. وكلّها روميّة.

إن من أكبر العوامل في ترقية اللغة العربيّة اليوم ذلك الشباب النشيط الذين يعملون على نقل الأدب الغربي إلى العربيّة أمثال شكري، والمازني، والسباعي؛ فإن هؤلاء الأدباء قوة أدبية كبرى دافعة بنا إلى الأمام. دافعة بنا إلى انقلاب عظيم بما ينقلونه من أساليب التفكير وطرائق التعبير التي ابتكرها فحول كتَّاب العرب.

أما مستقبل اللغة العربيّة فضمانه وطريقه انتشار المطابع والجرائد والمجلّات (على الأخص)، ونموّ الشعور العام بالمصلحة القومية بدرجة عظيمة.

والأمم تسير نحو الرقي بخطوات متناسبة مع درجة كمالها في الوجود السياسي، فإذا عرضت لها حرب أصابت جسم الإنسانية منها صدمة يضطرب لها مجموعها العصبي، فما تراها بعد إلا وقد تغيَّرت أمورها، وتبدَّلت أحوالها، وتهيَّأت لقبول ما لم تقبله قبلاً. وخلعت عن عاداتها ما أعجز أطباء الاجتماع قروناً عديدة.

وسترى من الشرق بسبب هذه الحرب الضروس حركة ويقظة تعيد مجده القديم عما قريب إن شاء الله.

أمين واصف

إبراهيم حلمي العمر

صاحب جريدة «المفيد» البغدادية

ما اللغة إلا عنوان رقيّ الشعب؛ فإن كان متأخِّراً كانت متأخِّرة، وإن كان متقدِّماً كانت متقدِّمة. ومستقبلها لا يُقاس إلا بمستقبله فإذا كانت اللغة الفرنسوية حَيّة بحياة الفرنسيس، واللغة الإنكليزية راقية برقيّ الإنكليز، فكذلك اللغة العربيّة تحيا بحياة العرب، وتموت بموتهم، وتتقدَّم بتقدُّمهم، وتزهو بزهوهم، وتعلو بعلائهم. وهذه قاعدة جرت عليها اليونانية فكانت كما كان اليونان، واللاتينية فأصابها ما أصاب اللاتين. وقد تتغيَّر اللغات بتغيُّر أقوامها وشعوبها، وتتلوَّن بألوانهم، وتلبس لباسهم، فتكون منتصرة فائزة بانتصار المتكلِّمين بها على غيرهم، وخاسرة خاضعة بخضوع أبنائها للأمم الفاتحة والشعوب الظافرة.

لمّا كان العرب فاتحين قابضين على زمام السيادة والسياسة والعلم على عهد العباسيين في بغداد كانت تعابيرها وكلماتها وكثير من مصطلحاتها متغلغلة بين ألسنة الفرس، والترك، والهنود، وهم أقرب الشعوب إلى بغداد من حيث الصلة الجغرافية والأدبية والدينية كما كانت مفرداتها شائعة في إيطاليا وصقلية على عهد الفاطميين، والأدارسة، وبني تغلب في برقة، وفاس، والقيروان، والقاهرة. وقد نفذت مصطلحاتها العلمية في قلب اللغة الفرنسوية والإسبانية لمّا كان العرب ذوي الحول والطول في الأندلس. وليس شيوع المفردات العربيّة في اللغات الفارسية والتركية والإيطالية والفرنسوية والإنكليزية إلى اليوم إلا مثالاً من أمثلة تأثير لغة الأقوياء على الضعفاء، والمتقدِّمين على المتأخِّرين، والغالبين على المغلومين.

ضَعُفَت اللغة العربيّة بضعف العرب، وسوف يقوى ساعدها، وتبلغ أوج مجدها وكمالها بمقدار ما يناله العرب من الحضارة والاستقلال السياسي والمالي والأدبي. ولئن بدت آثار اللغة الفارسية والتركية في لهجات العراقيين والسوريين لأسباب سياسية فإنما تبدو فيهم آثار الفرنسوية والإنكليزية اليوم لأسباب مدنية واجتماعية وتجارية. ولا تتغلَّب اللغة العربيّة على هاتيك اللغات إلا إذا انتصر شعبها على الممتزجين به والمتقربين إليه من الدخلاء سياسياً وأدبياً واجتماعياً.

إن اللغة العربيّة اليوم في مؤخِّرة اللغات الراقية. وقد أضرّ بها المتمسِّكون بقشور القديم، وبالكلمات الضخمة الجافّة بمقدار ما أضر بها المتفرنجون المقلِّدون القائلون بوجوب نشر الكلمات الأجنبية التي لا يوجد ما يقابلها في اللغة العربيّة. وهذا التناقض الغريب الذي لم يقم يبنهما رأي معتدل هو الذي جعل أغلب كتّابنا يكتبون في السياسة، والطبّ، والصيدلة، والفلسفة، والاجتماع بلغة الأدب، بل بالأسلوب الذي كان يكتب فيه عبدالحميد الكاتب وابن المقفع، والصابي، والهمداني إذا صح القياس من حيث ضخامة الألفاظ لا من حيث المتانة والسلاسة والانسجام. في حين إن اللغة السياسية غير اللغة الأدبية، والاجتماعية. وإن لكلّ علم من العلوم لغة خاصة به وتعابير لا يجوز استعمالها في غير ما وضعت له.

صعب جداً أن نحكم على مستقبل اللغة العربيّة. وكذلك صعب أن نحكم على مستقبل العرب، فهو مظلم قاتم إذ رأينا حالة العرب الحاضرة وملوك الطوائف التي قامت الآن بينهم مما ذكرنا برصفائهم في أواخر الدولة العباسية وأزمنة انحطاطها، وزاهر باهر إذا توسَّعنا في الخيال، وقلنا إن ما يخسره الغرب يربحه الشرق، وإن عهد الانتقال بدأ يسير سيراً طبيعياً بعد الحرب العامة. ولكن كلّ ذلك ليس إلا خيالاً في خيال ووهماً في أوهام إذا لم يُقَدَّم عليه دليل يؤيِّده وبرهان يسنده، بل إذا لم يبرز

العربي كفاءة ومقدرة أكثر من كفاءته ومقدرته الحاضرة. ومتى تركنا الاثنين جانباً وحكمنا على اللغة يحاضرها جاز لنا القول بأنها مهدَّدة بالزوال والاضمحلال. ولا يبعد أن تكون العربيّة لغة الدين مثل اللاتينية، والسريانية، واليونانية بعد أن كانت لغة العلم والسياسة والأدب.

أي دليل على ضعف اللغة العربيّة أقوى من أن العربي المصري يتكلَّم بلغة يكاد لا يفهمها العربي السوري والعراقي، وأن الجزائري أو التونسي يتكلَّم بلهجة هي أقرب إلى الفرنسوية منها إلى لغة قحطان؟ وأيّ عاقل يقول بنهوض لغة العرب في المستقبل إذا لم تتغيَّر الحال وهو يرى أن أكثر من نصف بلاد العراق يتكلَّم بعضها بالتركية كخانقين، ويعقوباء، وكركوك. وبعضها بالفارسية مثل النجف، وكربلاء، والكاظمية. وبعضها بالكردية في مدن السليمانية، والعمادية، وسنجار. وأن عدداً كبيراً من سكان ولاية حلب يستعملون لغة الترك في شؤونهم ومرافقهم كما في كلس وعينتاب ومرعش، وأن ديار بكر - وقد كانت عربية قبلاً - هي اليوم كردية أو أرمنية أكثر منها عربية، وأن بيروت زهرة بلاد العرب يترفَّع فيها المتعلِّم من النطق بلغته ليختار الإنكليزية أو الفرنسوية دونها، وأن العربي الصميم يكاد يكون في حاجة إلى ترجمان في مراكش وتونس إذا ما رام السياحة في أكنافها وأطرافها؟ إن هذا - لعمري - بلاء ليس وراءه بلاء، وطامة ليس أعظم منها طامة!

ما دام في العرب من يقول بوجود قراءة مقامات الحريري وأشباهها في العصر العشرين، ومن يستعمل الأضداد التي يجب أن يجوز استعمالها إلا إذا استحال إيجاد كلمات أخرى تؤدي معنى المترادف، وما دام فيهم من ينطق بكلمات - بونجور، وبونسوار، وقليم، وتماشا؛ فإن اللغة العربيّة لا تحيا ولو قامت في دمشق دولة آل مروان، ولو بُعِث الرشيد من رمسه في بغداد. وليس بَليّة العرب بفقر لغتهم بل بعدم وجود رأي معتدل بين

العاكفين على القديم والمولعين بالتقليد، وإذا انتصر هؤلاء على أولئك فإنما يؤدّي هذا الانتصار إلى الخروج من عربية بدوية إلى عربية

أعجمية إلى لغة خاصة لا عربية ولا أفرنجية.

إن بقاء الاحتلال الإنكليزي في العراق، والاحتلال الفرنسوي في سوريا لا يفيد اللغة العربيّة شيئاً، بل يؤدّي إلى اضمحلالها؛ لأن المغلوب مولع بتقليد الغالب، لأنه يعتقد فيه الكمال فينحو منحاه، ويعتنق مبدأه، ويتعلّم لغته. ولذلك من العبث والخطل أن نظن بأن اللغة العربيّة ستبرز إلى الوجود بثوب قشيب، لا بأطمار بالية. وخير وسيلة لإحياء اللغة العربيّة -ولو بقي العرب محكومين- هو اتّباع هذه الوصايا:

1- إقامة سوق عكاظ جديدة في إحدى العواصم العربيّة يلتئم فيها خلال فصل الربيع، ويقدّم الجوائز والهبات لكل مبرِّز وفائز في فنّ من الفنون العربيّة، أي لمن ألقى أحسن خطبة، وقال أنفس قصيدة، وكتب أبلغ مقالة، وصنَّف أنفع كتاب، على أن تتبرع الحكومات والإمارات العربيّة في تقديم هاتيك الجوائز إحكاماً للصلة الأدبية وتوحيداً للمساعي في نصرة الآداب وتنشيط المتأدِّبين.

2- إنفاق أموال الأوقاف - وهي كثيرة - في إنشاء مدارس عربية المبدأ، وإقامة جمعيات تنظر في نشر اللغة وتهذيبها، لا إنفاقها على مدارس الخمول والجمود.

3- حمل الدول المحتلّة أو المنتدبة - إذا كان مثل ذلك - على استعمال اللغة العربيّة في جميع الشؤون الرسمية، لا كما يجري اليوم في بيروت وبغداد، تحبيباً للناشئة إلى تعليمها وإتقانها.

4- عقد مؤتمر لغوي يزيل من الوجود أغلب كتب النحو والصرف والبيان والبديع والأدب الغليظ، ويشطب من القواميس والمعاجم أكثر الكلمات المهجورة السمجة التي لا يستعملها اليوم غير المتشدِّقين والمتقعِّرين، ويبتكر كلمات تعبِّر عن المخترعات الجديدة، ويقاوم استعمال الكلمات المتضادة فلا تستعمل كلمة واحدة في معنيين متباينين.

5- امتناع المجلّات والصحف عن نشر المقالات التي كتبها أصحابها بأسلوب عويص حتى يبرهنوا على تضلُّعهم في اللغة أو التي يكتبونها بلغة ركيكة متفرنجة إعلاناً لتساهلهم وتقليدهم.

6- مقاومة الشعر العامي كالزجل وغيره مقاومة شديدة واحتقار أنصاره.

7- تحسين الموسيقى العربيّة. وهي أحسن طريق لنشر اللغة الفصحى بين الطبقة العامة.

8- إنشاء جمعيات أدبية في بلاد العرب تكون على رأسها جمعية عليا في إحدى مدن العرب كالقاهرة ودمشق وبغداد تكون مهمَّتها توحيد التعليم والتربية في جميع الأقطار العربيّة، ولو كانت منفصلة سياسياً بعضها عن بعض.

هذا مجمل ما يمكن أن يُقال في هذا الموضوع. إذا لم يُرزَق العرب دولة مستقلّة كما رُزِق اليونان دولتهم بعد اليأس والقنوط، أما إذا تحقّقت الآمال والأماني - وهو ما نرجوه اليوم - فليس للعرب حينئذ إلا اتّباع الأساليب المحكمة التي اتَّبعها مَنْ سبقهم وتقدَّمهم. وفوق كل ذي علم عليم.

إبراهيم حلمي العمر



الكتاب الثاني

نهضة الشرق العربي
وموقفه إزاء المدنيّة الغربيّة

موضوع الاستفتاء

1- هل تعتقدون أن نهضة الأقطار العربيّة قائمة على أساس وطيد يضمن لها البقاء، أم هي فوران وقتي لا يلبث أن يخمد؟

2- هل تعتقدون بإمكان تضامن هذه الأقطار وتآلفها؟ ومتى؟ وبأي العوامل؟ وما شأن اللغة في ذلك؟

- هل ينبغي لأهل الأقطار العربيّة اقتباس عناصر المدنيّة الغربيّة؟ وبأي قدر؟ وعند أي حدّ يجب أن يقف هذا الاقتباس؟:

أ- في النظامات السياسية الحديثة؟

ب- في الأدب والشعر؟

ج- في العادات الاجتماعية؟

د- في التربية والتعليم؟

مخائيل نعيمة

العضو في «الرابطة القلمية»

لقد كثرت «نهضاتنا» في هذه الأيام، وتعدَّدت «حركاتنا» حتى لا تسمع إلاّ بالناهضين، ولا ترى إلا القائمين بحركة ما. فهناك الحركة الوطنية والجنسية والسياسية. وهناك النهضة الأدبية والتهذيبية والاقتصادية. وكدت أنسى النسائية. وكثيراً ما سألت نفسي: مّاذا عسانا نعني بقولنا «نهضة»؟ أنقصد أننا كنا غافلين فاستفقنا. أم مستلقين على ظهورنا فانتصبنا. أم سائرين في مؤخِّرة موكب الحياة فأصبحنا في منتصفه أو مقدِّمته؟ وكيف لنا، كلما خطونا خطوة، أن نعرف هل خطونا إلى الأمام، أم إلى الوراء، أم بقينا حيث كنّا؟

قد يحسب البعض مثل هذه الأسئلة ضرباً من البلاهة أو البلادة. غير أني أسألهم بكل احترام أن يطلعوني على المقياس الذي يقيسون به «التقدُّم» لأطلعهم على رأيي في «نهضاتهم».

إن مسافراً خرج من بيته قاصداً محطة القطار فوصلها يعرف أنه قد «تقدَّم» في رحلته ذراعاً أو فرسخاً. فكيف لأمّة أن تعرف أنها «تقدَّمت» في سيرها؟ هل يتمّ لها ذلك إذا انتقلت من حكم أجنبي إلى وطني. أو من ملكي إلى جمهوري. أو إذا كانت لها مدرسة واحدة فأصبحت لها مدارس. أو معمل فغدت وعندها ألف معمل. أو طيارة أو قطعة بحرية صغيرة فأصبحت وعندها طيارات وأساطيل لا تقهر؟ وبعبارة أخرى: هل إذا بلغت الأقطار العربيّة يوماً شأن الولايات المتحدة أو إنكلترا أو فرنسا أو اليابان تحسب أنها «تقدمت»؟.

إذا كان لما تعوَّدنا أن ندعوه «رقيّاً» أو «تقدُّماً» من معنى فمعناه يجب أن يقاس بالسعادة الناتجة عنه. ولا مقياس للسعادة، في نظري إلا واحد. وهو مقدار التغلُّب على الخوف بكل أنواعه: خوف الموت، وخوف الجوع، والألم، والفاقة، والعبودية، وكل ما هنالك من ضروب الخوف؛ لأن التغلُّب على الخوف يولِّد تلك الطمأنينة الروحية التي لا سعادة بدونها. فإذا كانت المدنيّة الغربيّة، كما نعرفها، تساعد على استئصال الخوف أكثر من المدنيّة الشرقية فهي حَرِية بالحفظ والتقليد. وحريٌّ إذ ذاك، بالشرق أن يتبيَّن من الغرب برلماناته ومعاهده العلمية والمدنيّة، وأن يتزيّا بأزيائه الأدبية، وأن لا يقف في تقليده عند حَدّ.

فلنقف هنيهة، ولنقابل بين المدنيَّتين لنرى: هل المدنيّة الغربيّة حَرِيَّة بأن تتّخذها الأقطار العربيّة قِبلة لها؟

عندما أسأل نفسي عن الفرق بين الشرق والغرب أراه منحصراً في نقطة واحدة جوهرية؛ وهي أن الشرق يستسلم لقوة أكبر منه فلا يحاربها، والغرب يعتقد بقوّته، ويحارب بها كل قوة. الشرق يرى الخليقة كاملة لأنها صنع الإله الكامل. والغرب يرى فيها كثيراً من النقص، ويسعى «لتحسينها». الشرق يقول مع محمد: «قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا»، ويصلِّي مع عيسى: «لتكن مشيئتك»، ومع بوذه يجرِّد نفسه من كل شهواتها، ومع لاوتو يترفَّع عن كل الأرضيات ليتَّحد بروحه مع «الطار» أو الروح الكبرى، أما الغرب فيقول: «لتكن مشيئتي». وإذا يخفق في مسعاه يعود إليه ثانية وثالثة، ويبقى يعلِّل نفسه بالفوز. وعندما يدركه الموت يوصي بمطامحه لذرِّيته.

الشرق توَّهم مرة أن في إمكانه الوصول إلى عرش ربِّه، فبنى برج بابل. وإذ هبط برجه أقرَّ بضعفه وجبروت خالقه وسلم. أما الغرب فيبني كل

يوم برجاً، وكل يوم يهبط برجه، فيعود إلى ترميمه مصمِّماً على إدراك كنه الوجود من تلقاء نفسه.

الشرق يقول: «ولا غالب إلا الله»، أما الغرب فيقول: «ولا غالب إلا أنا».

إن إدِّعاء الغرب بقوَّته واستسلام الشرق لقوّة أكبر منه هما الحدّ الفاصل بينهما. وعندي أن في إقرار الشرق بضعفه تجاه قوى الموت والحياة غلبة له، وفي مكابرة الغربِ بقواه إزاء قوى الموت والحياة انخذاله واندحاره. فما الغرب محاولاً إصلاح الخليقة وفهم أسرارها إلا كسمكة في بحر تحاول «تحسينه» والوقوف على مكنوناته.

إن ما أدركه الشرق منذ أجيال بإيمانه واختباراته الروحية يحاول الغرب اليوم أن يتوصَّل إليه بمكروسكوبه وتلسكوبه. ومن العِبَر أنه كلما تعمَّق في درسه عاد إلى الشرق، ونفض عن بعض تعاليمه غبار الدهور، وصقلها، ثم عرضها على إخوانه كأنها حقائق جديدة؛ فهو ينقِّب في هذه الأيام عن فلسفات الصين والهند واليهود والعرب والعجم ليجد فيها مفاتيح لما أُقفِل في وجهه من أسرار الوجود. وعبثاً جَرَّب أن يفتحه ببراهينه وتعاليله.

هوذا عالم غربي كبير يدعى فلاماريون يترك النجوم التي قضى خيرة حياته في درس أسرارها، ويكرِّس ثلاثين عاماً من عمره «ليبرهن»» للغرب في ثلاثة مجلَّدات ضخمة عن أن الإنسان مركَّب من روح وجسد. وأن الجسد يتحوَّل بالموت، أما الروح فتبقى. وقِسْ عليه السير وليم كروكس، وأولفر لودج، وكونان دويل وسواهم؛ فإذا كان الغرب قد أدرك اليوم. أو أخذ يدرك ، هذه الحقيقة «بالبرهان» فالشرق قد عرفها منذ نعومة أظفاره بإيمانه، وقد شاد عليها وعلى سواها من الحقائق

المنزَّلة، بنيان حياته.

قلت «الحقائق المنزلة»؛ إذ ليس في نظري من حقائق سواها. فالإنسان من تلقاء نفسه قاصر عن إدراك سرّ الوجود. وهذه الحقائق هي ميراث الشرق منذ ولادته. أما ما ندعوه في هذه الأيام «حقائق علمية»، ونكيّف معيشتنا بموجبه فليس إلا ضرباً من التخمين نتلهّى به من يوم إلى يوم. فمن ميزات الحقيقة أنها حقيقة في كل زمان ومكان. أما الحقيقة التي نتزوَّجها اليوم، ونطلِّقها في الغد فما تلك بحقيقة على الإطلاق. وأكثر ما يقال فيها إنها «تقدير معقول» لوقت محدود، وإنها صالحة إلى أن يظهر ما هو أصلح منها بالنسبة إلى مداركنا. أَوَ ليست هذه حال الغرب مع علومه وعلمائه. وحالنا مع الغرب؟

لو أخذت من المدنيّة الغربيّة ما استعارته من الشرق لتركتها لحداً مطليّاً من الخارج بالذهب، وفي الداخل محشواً عظاماً و دوداً.

لو قلت للغرب يوماً: «ها أنا سأجمع كلّ آثاركم الكتابية، وأحرقها إلا واحداً، ولكم أن تختاروه». فماذا ترى يختار الغرب؟ يختار، ولاشك، الكتاب المقدَّس! ولو فعلت ذلك بالعالم الإسلامي لاختار القرآن الشريف. فإذا كان أثمن آثار الغرب وأعزّها هو هبة الشرق فكيف للشرق أن يمدّ يده إلى الغرب مستعطياً؟ وماذا عساه يستعطي سوى طيارات وقطارات ودواليب وأسلاك ولوالب ومدرعات وبرلمانات ومتاحف ومعاهد ومقاصف ومخدرات وعلل ومشاكل كثيرة ليست لتدنيه من كنه الحياة، ولا لتعطيه طمأنينة روحية ليس يحصل عليها بإيمانه؟ أما الثمن الذي يدفعه إلى الغرب لقاء ما يستعيره منه أو يستعطيه فعزَّة النفس وراحة الفكر والاعتراف العلني أنه - وأعني الشرق - مزبلة العالم، وأن الغرب جنَّته الغنَّاء.

إذا كان ما نقصده «بنهضة» الأقطار العربيّة هو طموحها إلى مجاراة الأمم الغريبة في حلبة الاقتصاد والسياسة والسيطرة ومناهضتها بسلاحها فليس لهذه الأقطار إلا أن تحذو حذو اليابان، وأن تقتبش كل ما يمكنها اقتباسه من الغرب بدون تمييز، وبأسرع ما يمكن، غير أني لست أشتهي للأقطار العربيّة مثل هذه «النهضة». وفي اعتقادي أن فرسخاً مربعاً من بلاد الصين «الخاملة» يحوي من الجوهر أكثر من كل جزائر اليابان «الناهضة».

إن الشرق لفي غنى عن اقتباس حرف واحد من المدنيّة الغربيّة. إذ ليس الاقتباس إلا تقليداً. وكل من يقلِّد سواه لا يكون مخلصاً لنفسه؛ لأنه يخفي حقيقته ليظهر بحقيقة سواه. وفي كل أمّة، مثلما في كل فرد، حقيقة كلّ جمالها في أن تظهر كما هي؛ لذاك لا أرى كيف يمكننا أن نقلِّد الغرب في أمر من الأمور دون أن نخون أنفسنا، ونمسخ الحقيقة التي فينا.

لنأخذ الشعر مثلاً. ما الشعر، ولا الأدب بأسره إلا عواطفنا وأفكارنا منظومة أو منثورة. فإذا تحدَّينا في نظمها أو نثرها الغربي فنحن ناظمون وناثرون عواطف وأفكاراً غير عواطفنا وأفكارنا. وإذ ذاك لا شعرنا شعر ولا أدبنا أدب. وليس أقلّ قباحة من ذلك تقليدنا لأبناء الجاهلية أو ما بعدها؛ فجمال الشعر إنما هو إخلاصه في تصوير الحقيقة الكائنة في نفس الشاعر. وفي ذاك سرّ الابتكار والإبداع.

لقد قلت ما قلته في المدنيَّتين - الشرقية والغربيّة - وأنا عارف حق المعرفة أن المدنيّة الغربيّة -وإن تداعى بنيانها- لا تزال برّاقة غرَّارة. وإنها لن تهوي إلى الحضيض قبل أن تشمل المعمور بأسره. وأن الأقطار العربيّة سيكون لها من هذه المدنيّة نصيب كبير قبل تلاشيها.

لكنني أحجم عن التكهُّن بمقدار ذاك النصيب وبوضع حدوده الزمانية والمكانية. تاركاً ذلك لمن مَيَّزهم الله بمقدرة النبوءة ليرشقني من شاء بقوله: «إنه رجعيّ يعود بنا إلى مجاهل الدين وخرافاته». فماذاك ليثنيني عن اعتقادي بأن الشرق أقرب من الحقيقة بإيمانه من الغرب بفكره وعلمه وبرهانه. و«أن الغرب المكابر بقواه، إن لم يكن أشقى من الشرق المستسلم لقوى فوق قواه، ليس أسعد منه ولا أرفع ولا أشرف. بل أن القائل من كل قلبه: «ولا غالب إلا الله» لأحكم، في نظري، وأكثر طمأنينة روحية من القائل: «ولا غالب إلا أنا». وإن لم يكن بدّ للواحد من التتلمذ للآخر فالغرب أحوج إلى مدرسة الشرق من الشرق إلى مدرسة الغرب.

نيويورك - مخائيل نعيمة

سلامة موسى

1- ليست نهضة الأقطار العربيّة قائمة على أساس وطيد لأنها نهضة سياسية فقط، وشرط النهضة أن تكون اجتماعية واقتصادية وأدبية. فلا يجب أن نرمي إلى تغيير نظامنا الحكومي فحسب، بل تغيير نظام العائلة واعتبارات الطبقات الاجتماعية، وكذلك نظام الإنتاج الاقتصادي. حتى الأسلوب الكتابي يجب تغييره. وسبيل ذلك إيجاد نظام لزواج مدني يعاقَب فيه من يتزوَّج أكثر من امرأة واحدة، ويمنع الطلاق إلا بحكم محكمة، ويجيز زواج الأفراد ولو اختلفوا ديناً. ثم يجب إدخال جميع الإصلاحات الأوروبية التي رفعت حال العامل، وغيَّرت علاقته برأس المال والسير في السبل الاشتراكية المعتدلة. ولكن الإصلاح نتيجة اختمار سابق تُهَيَّأ فيه العقول، وخير تهيئة لعقول أبناء الأقطار العربيّة أن تنتشر بينهم حقائق التاريخ الطبيعي وأصول الأديان التاريخية والأفكار الديموقراطية الحديثة.

2- عند رجال الذهن ميل إلى تضامن الأقطار العربيّة بل اتّحادها في شبه ولايات متّحدة عربيّة كل منها مستقلّ في داخليته. ولكن إنكلترا وفرنسا تعوقان تحقيق هذه الفكرة. ورابطتنا الحاضرة هي اللغة وهي جامعة المستقبل لأن الأديان الرسمية - وهي غير الروح الدينية -قد خفَّت وطأتها. ولغتنا العربيّة لوحدة وتيرتها في التعبير من أقوى الجامعات، فيجب أن لا نحيد عن هذه الوحدة.

3- علّة الأقطار العربيّة ورأس بلواها أننا مازلنا نعتقد أن هناك مدنيّة غير المدنيّة الأوروبية. فآدابنا لا تزال في معترك بين آسيا وأوروبا. فيجب أن ننزع نحو أوروبا، ونفتح أبوابنا على مصراعيها للحضارة

الأوروبية، ونتقبّل مبادئ البرلمانية والديموقراطية والاشتراكية. وهذه مبادئ لم تعرفها آسيا أمّ الاستبداد الأوتوقراطي في الحكومة والدين والأدب والعلم مع أنها لبّ النجاح القومي.

وليس هناك حدّ يجب أن نقف عنده في اقتباسنا من الحضارة الأوروبية. والحقيقة -كما قلت - أن في العالم العربي الآن صراعاً بين المبادىء الآسيوية التي ينصرها ويذود عنها رجال الدين والمبادئ الأوروبية التي يدين بها، ويعمل في نشرها طبقة صغيرة عدداً، ولكنها كبيرة حرمة وجاهاً باعتبار أن في يدها مقاليد الأحكام؛ فهذه الطبقة تستطيع أن تحضر العالم العربي طفرة بسَنّ القوانين كأن تعاقب مثلاً المرأة المتحجّبة كما عاقبت حكومة الصين الرجال الذين يرخون ذؤابات على رؤوسهم. ولا قِبَل لنا بانتظار التطوُّر الاجتماعي؛ لأن العالم يثب نحو الأمام.

وواجب كتّاب الصحف والمجلّات أن يؤسِّسوا نوعاً من الرقابة النيِّرة لمنع الرجعيين ذوي الثقافة الآسيوية من نشر آرائهم في صحفهم أو طبعها للجمهور. فلا ينبغي مثلاً لصاحب المجلّة أو الجريدة أن ينشر دفاعاً عن الحجاب أو ما شابه ذلك.

سلامة موسى

الأستاذ المستشرق أ. جويدي

إني على ثقة من كون نهضة العالم العربي التي نشاهدها اليوم وطيدة الأساس ثابتة الأركان لأن لها جذوراً متَّصلة بروح الشعب العربي الذي اتَّصف بصفات جعلته أرفع مرتبة من سائرة الشعوب الشرقية. حتى في موضوع الدين فإننا إذا فكّرنا في روح التساهل والتسامح التي كانت سائدة في أيام الخلافة العربيّة الذهبية في دمشق وبغداد وجب أن نعتقد أن التعصُّب الديني لن يكون حجر عثرة في سبيل التفاهم بين أهل الأديان المختلفة، وأن العرب المسلمين سيسرّون من معاونة المسيحيين لهم سواء أكانوا أقباطاً أم لبنانيين أم غير ذلك. إن مرونة الذهن العربي عظيمة جداً، وهي تؤمل بأن آثار الرقي والتقدُّم في العلوم والآداب التي حازتها أوروبا وأميركا والتي اقتبست مصر - على الخصوص - جانباً كبيراً منها سوف تعمّ وتنتشر تدريجاً بين جميع الطبقات بفضل النهضة الحاضرة التي هي بمثابة شباب جديد للشعوب العربيّة، ولاسيما متى أصبحت مقاليد الأمور في أيدي حكومات وطنية.

أما اللغة فشأنها عظيم في ربط الأقطار العربيّة، وهي خير واسطة لإنماء روح الوطنية الحقّة وروح التعاون والتعاضد.

أ. جويدي (ترجمة)

الأستاذ محمد لطفي جمعة

إن في الأسئلة التي وجَّهتموها إليَّ ما يحتاج إلى بعض التفسير. أولاً - ما هو المقصود بالاقطار العربيّة؟ هل المقصود الأقطار العربيّة بالمعنى الصحيح أن بلاد العرب بحارها ونجدها ويمنها وحضرموتها، أم البلاد التي فتحها العرب في صدر الإسلام وبقيت إلى الآن سائرة على أنظمة عربية، أم البلاد التي يتكلم أهلها باللغة العربيّة بقطع النظر عن تابعيتهم ودينهم، أم البلاد التي تدين بالإسلام وتخضع للمدنية العربيّة بحكم لغة القرآن؟

ومهما يكن المقصود بالأقطار العربيّة أو الشرق العربي فإن أحد الاسمين إذا ذُكِر يحضر إلى ذهني الممالك الآتية: مراكش، الجزائر، طرابلس، مصر، السودان، بلاد سوريا (بقطع النظر عن تقسيمها إلى ولايات ودول)، بلاد العرب الحقيقية، بلاد العراق، وبعبارة أخرى أقصد بالشرق العربي أو الأقطار العربيّة جزءًا من الأرض يمتدّ من المغرب الأقصى غرباً، وينتهي بحدود فارس شرقاً، ويرتفع شمالاً إلى ديار بكر، وجنوباً إلى آخر حدود السودان الغربي لدى القبائل التي تتكلَّم اللغة العربيّة بلهجات مشوَّهة.

وهذه المساحة الجغرافية في مجموعها نحو قارة صغرى وعدد سكانها يتراوح بين أربعين وخمسين مليوناً من السكّان، ومعظمهم من الفصيلة السامية من الجنس البشري، وفيهم البيض والسود وفيهم ذوو الرؤوس المستديرة أمثال أهل سورية وذوو الرؤوس المستطيلة أمثال العرب والعراقيين. ومعظم هذه الأقطار غنية وخصبة وذات مركز جغرافي وسياسي واقتصادي عظيم. وأهلها معظمهم يشتغلون بالزراعة والتجارة

وهما الدرجتان الأوليان في المدنيّة، وفيهم من يمثّل بعض درجات المدنيَّة الراقية، وفيهم من يعيش حتى الآن في حالة همجيّة.

وهذه الشعوب مختلطة، بحكم موقعها، بمعظم شعوب الأرض. ولكنها -للأسف- كلّها محكومة بشعوب أجنبية قوية. فتونس والجزائر ومراكش وطرابلس تحكمها فرنسا وإيطاليا وإسبانيا. ومصر والسودان وفلسطين وسورية وشرق الأردن وبلاد العرب والعراق خاضعة للسلطة الأجنبية إما مباشرة وإما بالواسطة، إما حقيقة وإما مجازاً، ومقسَّمة بين إنكلترا وفرنسا. وبعبارة أخرى إن جميع الأقطار العربيّة تحكمها إنكلترا وفرنسا وإيطاليا وإسبانيا، وهي أربع دول من أوروبا الغربيّة واحدة منها أنجلو سكسونية شمالية، وثلاث لاتينية من دول البحر الأبيض المتوسط، واثنتان منها حديثتا العهد بالاستعمار في الأجيال الحديثة وهما إيطاليا، وإسبانيا.

والأديان المنتشرة في هذه البلاد هي الإسرائيلية، والمسيحية، والإسلام بجميع فرقها ومذاهبها وشيعها وألوانها. وسكّان تلك الأقطار العربيّة يشغلون جميع الممالك القوية في التاريخ القديم مثل قرطاجنة ومصر وفينيقيا وتدمر وبعلبك وبابل وآشور ودول الإسلام ومملكة اليهود، أي الممالك التي كانت مركز العمران والمدنيّة في العالم القديم. وفي هذه الأقطار ظهرت جميع الأديان السماوية في بيت لحم وأورشليم ومكة ومصر وسيناء. وكانت هذه الأقطار ميادين حروب عظيمة من قديم الزمان بين أمم الشرق والغرب مثل اليونان والفرس والرومان والعرب والحروب الصليبية.

هذه هي الأقطار العربيّة المقصودة في أسئلتكم قد حدَّدتها لنفسي ولقرّاء مجلَّتكم، فإذا تقرَّرت هذه الحقائق الجغرافية والتاريخية

والإثنولوجية يصحّ تفسير كلمة نهضة، وماتعنون بها. فهل تقصدون ما يقصد عادة بكلمة (رينيسنس) أي حركة إحياء العلوم والأداب والفنون مثل التي ظهرت في القرن الرابع عشر وما بعده في إيطاليا، وامتدت إلى أوروبا، أم نهضة بمعنى حركة فكرية ضدّ المعتقدات والعادات والأنظمة الاجتماعية القديمة، أم تقصدون بالنهضة الثورة السياسية؟ أظن أن كلمة نهضة تشمل كل هذه المعاني والمقاصد، وتجب الإجابة على سؤالكم من جميع وجوهها.

أما عن إحياء العلوم والآداب والفنون فأنا لا أرى لذلك الإحياء أثراً في الوقت الحاضر في جميع تلك الأقطار. ويجوز أن يكون في مصر ميل نحو هذا الإحياء. والدليل عليه ظهور كثيرين من الكتّاب والمفكّرين الذين يريدون خلع الثياب القديمة وطرق أبواب جديدة، ولكن هذه النهضة مقيَّدة الآن بعوامل كثيرة منها العوامل السياسية، أما في سائر البلاد الأخرى فلا أثر لتلك النهضة.

وعن النهضة الفكرية، أي الرغبة في خلع نير الأفكار والمعتقدات القديمة وظهور مصلحين في الدين والاجتماع فإننا نرى من حين إلى آخر أفراداً قلائل يقومون، ويرفعون بأيديهم مصباح الحقيقة، ويحاولون المحافظة عليه من زوابع الجهل والتعصُّب والغباوة المنتشرة في الأمم العتيقة المظلومة. ولكن هؤلاء الأفراد لا يقدرون على حمل المصباح بدون تعضيد من مجموع الأمّة فلا يلبثون أن يكلّوا دون الاستمرار في أعمالهم الجليلة، فيتواروا عجزاً، أو يهلكوا. وأمثالهم كثيرون في الأقطار العربيّة.

أما عن النهضة السياسية فلاشكّ في وجودها في سائر تلك الأقطار. وقد ظهرت أثارها الأولى في مصر، وانتشرت منها إلى البلاد المجاورة.

ولا غرابة إذا رأينا تلك النهضة قد استغرقت جميع قوى تلك الأمم وصرفتها عن كل نهضة سواها. فالمسألة السياسية، أي تمتُّع الأمم بحرِّيتها القومية والوطنية هي مسألة حيوية وهي شرط أساسي لوجودها. ونفسي تحدثني أنه إذا ساعدتنا الظروف على نيل الحرية فإن النهضتين السالفتَي الذكر (العلمية، والعقلية) تظهران حتماً بعد النهضة السياسية.

ورأيي في النهضة السياسية في الأقطار العربيّة أنها قائمة على أساس وطيد يضمن لها البقاء، وليست من نوع الغليان الوقتي الذي لا يلبث أن يخمد. وهذا الأساس الوطيد هو، أولاً، اقتصادي، وثانياً عقلي. فمن الوجهة الاقتصادية أدركت تلك الأمم الشرقية أن حالتها السياسية إذا استمرّت على ما هي عليه فلن يجد أهل تلك البلاد قوتاً لهم ولأولادهم ولأحفادهم من بعدهم، فانقلبت المسألة من مسألة معنوية إلى مسألة حيوية. والأساس العقلي هو ماحدث في الحرب العظمى وبعدها، فإن الحجاب الذي كان يستر الحقيقةعن عقول تلك الشعوب قد زال، وأصبحت تنظر إلى الدنيا نظر المدرك لما يدور حوله. هذان هما العنصران لأساس النهضة السياسية في الأقطار العربيّة، وهما عنصران قويان؛ ولذا اعتقد أن أساس تلك النهضة وطيد يضمن لها البقاء.

السؤال الثاني: أصعب من الأول والثالث. وهو: هل أعتقد بإمكان تضامن هذه الأقطار وتآلفها؟ ومتى، وبأي العوامل؟ وما شأن اللغة في ذلك. أقول: إنه ما دامت الحالة السياسية في أوربا على ما هي عليه وما دام الغرب ينظر إلى الشرق نظر البغضاء والاحتقار، ويعتبره فريسة باردة فكل ما يفعله الشرق العربي لحصول التضامن والتآلف سيفشل حتماً بفعل دول أوروبا التي لا تغفل ولا تنام عن نهضة الشرق، بل تبقى له دائماً بالمرصاد. ولكن إذا تغيَّرت الأنظمة السياسية في سائر أقطار أوروبا وأميركا أو في معظمها بحيث يصبح الباقي منها عاجزاً عن

الاستمرار في سياسة الاغتصاب والاستعمار فإن هذه الأقطار قد تتآلف، وتتضامن، وتتَّحد. وعلى كل حال، فأيّ خير يُنتظَر من هذا الاتحاد والتضامن والتآلف؟ إن كل شعب من الشعوب المذكورة له خلال وآداب وأفكار تباين أفكار وآداب وخلال الشعوب المجاورة. وهيهات أن يتَّفق المصري والمراكشي واليمني على أمر معيَّن بشروط معيَّنة؛ فلأجل هذا أظن أن تأليف دولة قوية تشغل وسط العالم القديم ليس من الأمور السهلة لأنه ينبغي أن نعلم شكل الحكومة التي تحكمها. إن دولة كهذه تحكم من رباط الفتح غرباً إلى بغداد شرقاً لا يستقيم أمرها إلا إذا كانت جمهورية عظيمة أو إمبراطورية خاضعة لإرادة فرد قوي جداً من نوع يوليوس قيصر. وأظن أن الشعوب المذكورة لن تخضع، ولن تدرك قبل مائتي سنة على الأقل قيمة الحكم الجمهوري الحقيقي. فإذا تكوَّنت جمهورية في إحدى الأمم فيبعد أن تهتمّ بشؤون الأمّة المجاورة لأن أساس الجمهورية الحقيقية حبّ الحرية للجميع. فهل تؤلف من الأقطار العربيّة جمهوريات عديدة تجتمع كلّها في مجلس أعلى يعقد مثلاً في دولة متوسطة بين بغداد ومراكش، وتكون تلك الأقطار أشبه شيء بالولايات المتحدة مختلفة في السياسة الداخلية ومتفقة في السياسة الخارجية؟ هذا جائز وممكن، ولكن بعد أن تصير أوروبا وأميركا مثل روسيا، أي دولاً حرّة لا يهمّها إلا شؤونها الداخلية وتعمير بلادها. أما وجود رجل قوي مثل قيصر يجعل نفسه إمبراطوراً للشرق العربي، فيصعب الآن وجوده لأن عهد الجبابرة قد انقضى، ولكنه إذا وُجِد فلن يوجد بعده نسل يحفظ كيان دولته، فتعود الحال إلى أسوأ مما كانت عليه.

وأهمّ عوامل التضامن والتآلف بين تلك الأمم هو عامل مكافحة التسلّط الأجنبي الذي غايته القضاء على حياة تلك البلاد، أما العامل الديني

فقد ضَعُف في هذا الزمن. وظهوره في فلسطين إنما هو ظهور وقتي بقوة السياسة، ولكنه سيختفي حتماً. فنحن ننتظر بصبر واستبشار ذلك العصر الذهبي الذي سيراه أحفادنا، ولكن ينبغي لنا أن نعمل لتحقيقه، وذلك بتأليف روابط قويّة بين سوريا ومصر من جهة، وبين ممالك إفريقيا الشمالية من جهة أخرى، وبين العراق وبلاد العرب. ولتكن تلك الروابط عقلية وتجارية وأدبية، فقد تؤدّي يوماً من الأيام إلى تحقيق ذلك الاتّحاد العظيم بين دول الأقطار العربيّة.

السؤال الثالث سهل للغاية:

1- عن الأنظمة السياسية الحديثة: أنصح لأهل الأقطار العربيّة أن يقتبسوا من عناصر المدنيّة الغربيّة ما هو شائع في أوروبا الشرقية في الممالك السلافية والجمهوريات المجاورة. وهذا لاعتقادي أن مستقبل العالم هو في سلوكه هذه الخطّة، ولأن أخلاقنا وأمزجتنا توافق أخلاق تلك الأمم. وها هي الأماني والأحلام الشرقية عن العدل والحق والحرية والإحسان والمساواة قد بدأت تتحقّق في تلك البلاد، بل تحقَّقت فعلاً. فالأقطار العربيّة أَوْلى الأقطار باقتباس الأنظمة التي أدَّت إليها. إن العالم يسير بخطوات واسعة نحو الاشتراكية المنظّمة المعقولة وتحقيقها بالفعل مع احترام الآداب والشعائر الحالية. فلماذا ينقطع الشرق العربي عن تلك المبادئ؟ وهذه نصيحتي ورأيي. وأظن كل عاقل يوافق عليها.

ب- في الأدب والشعر: ينبغي لنا أن نهمل الشعر بتاتاً، فإنه فنّ غير مثمر وهو مضرّ، لاسيما النوع الليريكي، ولا بأس بتشجيع النوع الإيبيكي منه مثل الإلياذة. أما الأدب فيجب علينا أن نشتغل بالتأليف القصصي والتأليف التمثيلي، وأن يوجد منامن يتقنهما بدرجة تداني أكابر كتّاب الغرب مثل تورجينيف، وتولستوي، وإيبسن.

ج- في العادات الاجتماعية: ينبغي أن نهتمّ أعظم اهتمام بحياة الأسرة، فنمحو نظام تعدُّد الزوجات وسهولة الطلاق، وينبغي أن تتحرَّر المرأة تحريراً كلّيّاً، ولكن بشرط أن لا تشارك الرجل في أعماله إلا في الضرورة القصوى لتتمكَّن بذلك من حفظ كيان الأسرة. وينبغي أن نغيِّر أزياءنا حتى تنطبق على حياتنا، وتوافق احتياجنا. فالطربوش مثلاً -وهو لباس شائع في معظم الأقطار العربيّة- يُعَدّ حلية جميلة للرأس، ولكنه قليل النفع في الشتاء وكثير الضرر في الصيف. والحبرة للمرأة من أقبح الأزياء وأقلّها جمالاً وفائدة، فيجب النظر في تغييرهما. ويجب علينا في الموت أن نقتدي بالأمم الغربيّة فلا نواح ولا صياح ولا مآتم ولا جنازات سخيفة، بل سكوت وسكون وخشوع وتوديع باحتشام لأن جلال الموت في الموت، ونهجر عادة زيارة القبور إلا مرة واحدة في كل عام. كذلك الأفراح ينبغي أن نقلِّد فيها الغربيين فلا صيوان ولا خيام ولا مآكل بغير نظام ولا غناء ولا رقص، ويكفي إعلان بسيط في الصحف أو للأقارب والأصدقاء. وسياحة شهر واحد أنفع للعروسين من إنفاق خمسمائة جنيه على بطون وأدمغة المدعوّين. وينبغي لنا أن نقتبس من الغرب عادات الإحسان المنظّم فننشىء الملاجىء والمستشفيات والمدارس للفقراء ليختفي منظر المُسْتَجْدين من الطرق، وينبغي أن نبطل جميع العادات السارية الآن باسم الأديان، وهي ليست منها في شيء. وفي هذا القدر كفاية.

د- في التربية والتعليم: ينبغي قبل كل شيء الاعتناء بالرياضة البدنية لا على الطريقة الإنكليزية مثل كرة القدم والملاكمة والمصارعة فإنها ألعاب سخيفة ومضرّة، ولا تنطبق على آدابنا، ولكن لابأس من ترويض الصغار على الجري والقفز وركوب الخيل والرمي باليد إلى مسافات بعيدة ورمي السهام واللعب بالسيف والرمح، وكذلك لابد من

ترويض البنات على الألعاب البدنية التي تناسب أجسامهن فيشتركن مع الصبيان في السباحة وركوب الخيل والصيد والركض لمسافات قصيرة. وينبغي من وجهة التعليم أن نصرف قوَّتنا إلى العلوم الحقّة مثل الكيمياء والطبيعة والرياضيات وعلم طبقات الأرض والمناجم وعلم الفلك وعلم حفظ الصحة، وبالجملة جميع العلوم التي لها غاية عملية نفعية في هذه الدنيا، و نضرب صفحاً - ولو مؤقتاً - عن علم اللاهوت وعلوم الكلام وما وراء الطبيعة، ونتوجَّه بكل قوَّتنا إلى علم النفس العملي، ولابدَّ من أن يتعلَّم كل شاب بجانب علومه صناعة مثل النجارة أو البرادة أو النسيج لما في ذلك من الفائدة المعنوية. أما التربية فهي حتماً ترتقي بارتقاء حياة الأسرة وتدريب الأمهات على تقويم أخلاق البنين والبنات.

محمد لطفي جمعة

الدكتور طه حسين

الأستاذ بالجامعة المصرية

- 1 -

أفهم جداً أن تُلقى مثل هذه الأسئلة في هذه الأيام التي نعيش فيها؛ لأن الشرق العربي كله مضطرب اضطراباً شديداً لم يكن لنا به عهد من قبل، فمن المعقول أن نسأل عن مصدر هذا الاضطراب وعن قيمته وعن نتيجته.

ولسنا في حاجةإلى أن نتعرَّف مصدر هذا الاضطراب فهو معروف. فالشرق يستيقظ من نومه وينهض بعد انحطاطه، ويتحرك بعد هذا السكون الطويل. لسنا في حاجة إلى أن نطيل البحث عن مصدر هذا الاضطراب، ولكنا مضطرّون إلى أن نتعرف قيمة هذا الاضطراب وخطر هذه النهضة.

أَحَقٌّ أن الشرق العربي ينهض، وأن نهضته قيمة صحيحة قويّة تستطيع أن تقاوم الخطوب، وأن تؤتي ما آتته النهضات في أوروبا وأميركا من الثمرات؟ أما أنا فلا أشكّ في ذلك بالقياس إلى مصر وسورية. ولكني لا أستطيع أن أجيب بنفي أو إثبات في أمر غير مصر وسورية من البلاد لأن علمي بأمر هذه البلاد قليل. لا أشكّ في أن النهضة المصرية والسورية صحيحة قوية منتجة. ولا أستدلّ على ذلك إلا بشيء واحد وهو أن هذه النهضة ليست بنت اليوم ولا أمس، وإنما مضت عليها عشرات السنين. بل مضى عليها أكثر من قرن. وهي تزداد في كل يوم قوّة وثباتاً ونموّاً و تناولاً لطبقات الشعب على اختلافها. ولو أنها نهضة

متكلّفة لماعاشت هذا الدهر الطويل، ولما استطاعت أن تقاوم منتصرة حرب الأجنبي التي لم تخمد نارها لحظة منذ ابتدأ القرن الماضي.

هذه النهضة صحيحة إذن. وهي عامة تتناول فروع الحياة جميعاً، فهي تتناول الحياة السياسية والاجتماعية والعقلية كما تتناول حياة العواطف والشعور. ومصر وسورية في جميع هذه الفروع من الحياة تذهبان مذهباً واضحاً بيّناً هو مذهب الاتّصال المتين بالحضارة الأوروبية. فسواءاً أراد المصريون والسوريون أم لم يريدوا فسيتّصلون اتّصالاً قويّاً متيناً بأوروبا في كل فرع من فروع الحياة. هم يفكِّرون كما يفكِّر الأوروبيون، ويشعرون كما يشعر الأوروبيون، ويسعون إلى نظام سياسي كنظام الأوروبيين. ولابد من أن يتمّ هذا كله، وأن تغمر الحضارة الغربيّة مصر والشام حتى يصبح هذان البلدان جزأين من أجزاء أوروبا. وفي الحقّ أن مصر والشام ليستا من هذه النهضة في منزلة واحدة، فقد تكون مصر أرقى من الشام نهضة سياسية، وقد تكون أرقى من الشام من الوجهة الاجتماعية والاقتصادية لأن وحدة مصر قد بقيت دائماً موفورة لم ينلها فساد ولا تقسيم، فكانت النهضة عليها أسهل وأيسر. بينما لقيت سورية أهوالاً وضروباً من العناء أفسدت عليها أمرها غير مرّة، واضطرّ السوريون إلى جهاد عنيف مؤلم لم يضطرّ إليه المصريون. فلعلنا لا ننسى أن الحضارة الأوروبية قد عرضت نفسها على مصر فقبلتها مصر، وأن أهل الشام قد هاجروا إلى أوروبا وأميركا يخطبون الحضارة، ويتحيّلون في اجتذابها إلى بلادهم. وقد تكلَّفوا في ذلك خطوباً وصروفاً، وظفروا آخر الأمر، ولكن بعد عناء شديد.

مصر إذن أرقى من سورية من الوجهة السياسية والاجتماعية والاقتصادية، ولكن سورية أرقى من مصر من وجهة الحياة المادّيّة الجديدة؛ فالسوريون أحرار من هذه الجهة. والمصريون محافظون. بينما يستطيع السوري في

سهولة ويسر أن يقطع كل ما بينه وبين القديم من صلة، وأن يصبح أوروبياً في حياته المادية والمعنوية بينما يجد المصري في ذلك عسراً شديداً. ولقد تجلس في جماعة من شباب السوريين وفتياتهم فيُخيَّل إليك أنك في جلسة أوروبية خالصة، ثم تجلس في جماعة مصرية من الفتيان - لا من الفتيات - فماتشكّ في أنك في بيئة مصرية شرقية خالصة قد أخذت من الحضارة الأوروبية بنصيب. وإذن فسيكون الرقي المصري هادئاً بطيئاً مأمون العاقبة لأنه سيحتفظ بالشخصية المصرية دون أن يهمل المدنيّة الغربيّة، وسيكون الرقي السوري سريعاً مندفعاً خطراً أشبه بالوثوب منه بالسعي، وستكون عواقبه شديدة الخطر إن لم يجتهد زعماء السوريين في تنظيمه وتهديئه؛ لأنه سيعرض الشخصية السورية للضياع والفناء في الحضارة الغربيّة.

- 2 -

أما تضامن مصر والشام فشيء لا شك فيه، ولكن إلى حَدّ؛ فمصر والشام شرقيتان تتكلمان لغة واحدة وتشعران شعوراً سياسياً واحداً أو متشابهاً على أقلّ تقدير، ولكنهما ليستا حُرَّتين، فأمامهما أوروبا. وأوروبا قويّة جبارة، ومنافع أوروبا كثيرة مختلفة معقَّدة. وكل ذلك يحول بين التضامن الفعلي السياسي وبين هذين القطرين.

وإذن، فستظل الصلة بين مصر والشام متينة، ولكنها لن تتعدّى المنافع المادية والاشتراك في طريقة التفكير والشعور. وربما كان من الشرّ المنكر أن يحاول المصريون والسوريون إيجاد صلات أخرى بين البلدين فإن ذلك يغري بهذين البلدين كيد أوروبا ومكرها، وستظلّ اللغة أهم الصِّلات بين مصر وسورية. وذلك ظاهر لا يحتاج إلى بحث ولا إلى استدلال.

- 3 -

من كلّ ما تقدَّم يظهر أن المصريين والسوريين مضطرّون بحكم الطبيعة الاجتماعية والمنفعة إلى أن يقتبسوا نظم الحضارة الغربيّة، ولكن هذا الاقتباس يجب أن يتفاوت قلَّة وكثرة.

فأما من الوجهة السياسية فيجب أن نمضى في ذلك مسرعين لا يقيّدنا إلا شيء واحد وهو استعداد شعوبنا لقبول النظم السياسية المعتدلة أو المتطرِّفة. فالجمهوريات مثلاً ممكنة جداً في سورية، ولعل نظامها مع شيء من الاعتدال أشدّ النظم ملاءمة لأحوالها السياسية والدينية والاجتماعية والجغرافية. وهذا النظام نفسه مستحيل خَطِر سيّء العاقبة في مصر، فيجب أن تسلك مصر طريقها الملكية الدستورية على أن يكون دستورها أقرب الدساتير إلى النظام الحُرّ الذي تستمتع به البلاد الإنكليزية. وكذلك قُل في العلم، فيجب أن نندفع في الطريق العلمية الغربيّة اندفاعاً لاحَدّ له إلا مقدرتنا الخاصة؛ لأن العلم قد أصبح غربياً خالصاً، وليس لنا فيه نصيب قومي. وعلى العكس من ذلك في الفن والأدب والحياة الاجتماعية، فلنا فنوننا وآدابنا ونظامنا الاجتماعي. وواجبنا هو أن نحتفظ بشخصيتنا قوية واضحة في هذه الأشياء، وألا نقتبس من أدب الغرب وفنّه ونظامه الاجتماعي إلا ما يُمَكِّن شخصيتنا من أن تنمو، وتتطوَّر، وتحتفظ بما بينها وبين العالم المتحضِّر من الاتِّصال

مصر - طه حسين

الأستاذ أنيس الخوري المقدسي

الأستاذ بالجامعة الأميركية ببيروت

للأمّة - كما للفرد - حالة روحية خاصة تتأثّر بالمؤثِّرات. وتتحرَّك إذا وجدت لها محرِّكات. وهذه الحالة الروحية نعبر عنها «بشخصية الأمّة» وهي الأسّ الحقيقي الذي يشاد عليه عمرانها، ويُعرَف به كيانها. فإذا كانت تلك «الشخصية» مهذَّبة منظّمة لها شعور حي وارادة متَّحدة كانت نهضة الأمّة قائمة على أساس وطيد يضمن لها البقاء، وإلا فهي فوران وقتي لا يلبث أن يخمد، ويزول.

فمن أي النوعين نهضة الشرق العربي اليوم؟

الذي أراه أن هذه النهضة قائمة على شعور عام يملأ نفوس الأمم الشرقية عموماً؛ شعور بشيء من احترام النفس والكرامة القومية، وهو أثر من آثار اليقظة العمومية في الشرق وقبس من ذلك النور الداخلي في حياة شعوبها الواقعة تحت سيطرة الغريب، أو هو نار من ذلك البركان الاجتماعي الذي قد أخذ ينفث حممه في كل أمّة لم يزل فيها رمق من الحياة. على أن الشخصية الشرقية العربيّة لم تزل في طور الحداثة، وسيمرّ عليها وقت طويل قبلما تبلغ سنّ الرشد، وتصبح قوة عظيمة يُعتَمَد عليها في عمران الشرق الأدنى. ذلك الأسّ الروحي الذي تقوم عليه نهضة الأقطار الشرقية اليوم هو أسّ صحيح، ولكنه لن يكون وطيداً ثابتاً، ولن يدوم طويلاً ما لم يتعزَّز بالعلم الصحيح، ويرتبط برباط التضامن، فينبذ الشرقيون، عندئذ، كثيراً من عاداتهم البالية، وينصرفون عن الأوهام وتنميق الألفاظ إلى العمل، إلى إحياء شخصيتهم القومية وتغذيتها بلبان

المعرفة والاتّحاد والتساهل. وبكلمة أخرى، إلى اتِّباع الحقيقة العلمية بدل التقاليد الموروثة والجامعة الوطنية بدل العصبيّات المفرِّقة. ولكن هل يمكن ذلك؟. هل يمكن وجود التضامن بين الأمم الشرقية العربيّة؟ هل يمكن أن يتنازل الشرقيون عما ورثوه من النعرات القتّالة لأجل المصلحة العمومية أو خدمة للحقيقة العلمية؟ هذا هو السؤال الثاني وعليه أجيب.

إني لا أنكر العقبات الكبرى التي في هذا السبيل. وكيف أنكرها وأنا كشرقي صميم خبير بأحوال الشرق وطبائع أهله أرى ما لعصبياته الدينية ومناهجه التهذيبية والاجتماعية من التأثير في تفكيك عراه وقتل روح التضامن والاتحاد بين بنيه؟ إن الناطقين بالضاد اليوم هم ورثة الأجيال السامية القديمة الذين عرفوا بالاستقلال الفردي والتخاذل القومي. ألا ترى أن اليهود قديماً وكذلك العرب بعدهم –مع محاولة الدين قتل نعراتهم الدموية ودمجها في عصبية واحدة جامعة هي العصبية الدينية- ظلوا قبائل قبائل وعصبيات عصبيات، واعتبر ذلك في سواهم من الأمم الشرقية السامية قديماً وحديثاً فترى أن الاستقلال الفردي أساس كل حركة من حركاتهم السياسية والاجتماعية، ولا عبرة بما تراه من بعض مظاهر الوحدة في تاريخهم، فما ذلك إلا حالات وقتية اقتضتها ظروف خاصة فزالت بزوال تلك الظروف.

ومع كل ذلك – مع معرفتي بطبائع الشرق العربي – أرى أن التضامن ممكن في أقطاره. أقول ذلك وأنا ناظر إلى بعيد إلى الوقت الذي يزداد فيه الضغط الأجنبي والصلف الغربي على الأقطار العربيّة ازدياداً يشعر معه سكّانها بألم شديد في أنفسهم وبوجوب التعاون مدافعة عن حياتهم أو عن كرامتهم. ومتى حصل هذا الشعور العام يرَ المسلم والمسيحي من أبناء العربيّة أن تصافيهما وتآخيهما واتّحادهما أصلح لهما وأبقى من

سوء ظن أحدهما بالآخر، وأن جامعتهما الشرقية أحنّ عليهما وأثبت لهما من كل نعرة دينية أو مصلحة طائفية.

نعم يحصل التضامن في الشرق العربي متى دَبَّت في بنيه روح التهذيب الراقي التي تعلِّم الإنسان أنه من الجهل مقت غيره لاعتناقه مذهباً يخالف مذهبه وأن الدين واجب روحي خصوصي يقوم به الفرد نحو القوة الأزلية المستقرّة وراء الأفهام، وإنما تظهر ثماره في المجتمع بحسن السلوك والفضائل. وأن أخا الإنسان الحقيقي ومواطنه هو الذي يجب الاتحاد معه والسعي بمساعدته نحو غرض واحد هو إسعاد بيئته ورفع مستواها. وأن العلم لا ينحصر في تقاليد كلامية بالية ينظر بواسطتها الإنسان إلى السلف فيراهم في علومهم وسنّتهم فوق قمم من العظمة والكمال لا يمكن بلوغها أو أن من الكفر الاعتقاد بإمكانية ذلك، بل هو المبني على المبادئ الفلسفية الراهنة والحقائق العلمية المؤيَّدة بالبرهان، وأن التربية الصحيحة لا تقوم بتحميل النفس أحمالاً من التعاليم السقيمة وحشو الدماغ بسخائف لا طائل تحتها، بل بدرس الحياة إجمالاً وتنوير المقل بنور الفضيلة وتمرين النظر على رؤية ما لا يُرى من جمال الوجود وتقوية الإرادة على السير في السبل الصالحة.

إذا عمَّت هذه الروح الشرق العربي، ونفذت إلى كل أمّة من أممه حتى تتأثّر منها شخصيتها التي لا تزال في طور الجدلية أو الطفولة فَبَشِّر، الشرقيين، حينئذ، بأن نهضتهم ستدوم، وأن تضامنهم سيكون أمتن من كل عامل للفساد والتفرقة.

ولقائل يقول: إذا لم يكن الدين أعظم جامعة لسكان الأقطار العربيّة فأية جامعة هناك تقوم مقامه؟ أية قوة تستطيع أن تضمّ هذه الأقطار، وتؤلِّف في كل منها وحدة قومية؟ هناك قوة واحدة تستطيع ذلك هي اللغة.

فاللغة العربيّة وآدابها وما إلى ذلك من تاريخها وتاريخ رجالها هي الأداة الوحيدة التي يمكن أن تجمع شتات العناصر في كل قطر عربي، وتجعل منها أمّة حياة نامية.

على أن هذه اللغة لا يمكن أن تكون الرابطة المثلى ما لم يُعدل بها عن القديم البالي إلى الجديد الحَيّ. اللغة لا يمكن أن تكون شعار أمّة حيّة ما لم تكن هي نفسها كذلك. وكيف تكون اللغة حيّة إلا بإخراجها من مدافن التقليد الأعمى التي وضعها فيها النحاة واللغويون والمتحذلقون أو مقلِّدوهم في هذا الزمان، وإخراجها إلى رحاب الأدب والعلم والفنون. اللغة لن تكون وحدة لشعوب الشرق العربي ما لم يفهم القائمون بأمرها أنها، ككلّ جسم حيّ، يجب أن تجري في سبيل النشوء والارتقاء، فلا يرجعون بها كما يحاول البعض من صاغة الكلام ومجامع اللغة إلى بوادي الجاهلية وفدافد القِدَم، بل يتقدَّمون بها نحو الجمال الحقيقي المبنيّ على الفكر الصافي والشعور العميق والمبادئ العلمية والأساليب السلسة، فيهذّبون نحوها، ويستهلونه، ويحيون آدابها وتاريخها بإحياء الروح العالية في نفوس أبنائها.

وهذا يقودنا إلى السؤال التالي وهو: هل ينبغي اقتباس عناصر المدنيّة الغربيّة في اللغة والأدب والسياسة والاجتماع؟

والجواب على هذا: نعم، ولا: نعم إذا أريد بالعناصر الغربيّة محاسن ما عند القوم من أسباب المدنيّة والعمران كأسباب الصناعة والإدارة والعلوم الطبيعية موضوعات الآداب الراقية واستعمالها لأجل ترقيتنا صناعياً واجتماعياً وأدبياً.. ولا إذا كان المراد تقليد المدنيّة الغربيّة تقليداً أعمى يذهب بشخصيتنا القومية ومحاسن عواطفنا الشرقية.

يجب أن يُقتَبس النور أنّى يكن: في الغرب أو في الشرق، في الشمال

أو في الجنوب. النور نور حيثما التهب. والحقيقة مفيدة أينما ظهرت. والمهمّ أن نسعى وراءها بشرط أن نقوّي بذلك شخصيتنا، وإلّا أضعنا أنفسنا بالتقليد، وفنينا في سوانا.

بقي سؤال لابد منه هو: هل يمكن أن يكون اتّحاد سياسي بين الأقطار العربيّة: مصر وسوريا، والعراق، والحجاز، وسواها؟

وجوابي على هذا: إن كان يراد بالاتّحاد السياسي تأليف مملكة عربية كبرى من هذه الأقطار فلا؛ لأن عوامل التفرقة الآن على اختلافها بين هذه الأقطار أكبر بكثير من كلّ قوّة للاتحاد السياسي. وإن كان يراد به تفاهم عمومي - كما هي الحال بين بريطانيا والولايات المتحدة - مبنيّ على الجامعة الأهلية فنعم. والرأي عندي أن يهتمّ كل قطر عربي بنفسه إدارياً أو سياسياً على شرط أن تتعاون الأقطار جميعاً على نهضة أدبية عمومية، نهضة تحيا بها الآداب العربيّة وعمران الشرق الأدنى فيسير الناطقون بالضاد معاً في سبيل العلم والحضارة، ويتضافرون روحياً على إحياء تلك العاطفة الأساسية في الارتقاء. أعني احترام النفس. فإذا تَمَّ لهم ذلك، إذا تَمَّ لكل قطر عربي أن تتكوَّن فيه شخصيّة قومية، وإذا أمكن أن ترتبط هذه الشخصيات برباط أدبي حيّ فلا نستغرب أن نرى الشرق الأدنى اليوم قد بلغ ما بلغته اليابان، فيرجع حينئذ مجده القديم الذي طالما ندبه النادبون، ويعيد نشاطه الذي أفقدته إياه الحوادث والسنون.

بيروت - أنيس الخوري المقدسي

جبران خليل جبران

السؤال: **«هل تعتقدون أن نهضة الأقطار العربيّة قائمة على أساس وطيد يضمن لها البقاء، أم هي فوران وقتي لا يلبث أن يخمد؟»**

في عقيدتي أن ما نحسبه نهضة في الأقطار العربيّة ليس بأكثر من صدى ضئيل للمدنية الغربيّة الحديثة؛ ذلك لأن هذه النهضة المباركة لم تختلق شيئاً من عندها، ولم يبن منها ما كان موسوماً بطابعها الخاص، أو ملوَّناً بصبغتها الذاتية. والإسفنجة التي تمتصّ الماء من خارجها، وتنتفخ قليلاً لا تتحوَّل إلى ينبوع ماء حيّ. أما ذاك الذي يرى في الإسنفجة نبعة فهو أحوج إلى الرمدي وعقاقيره منه إلى صاحب هذا المقال ونظريّاته في الاجتماع.

إن الشرق بكلِّيَّته، ذلك الشرق الممتدّ من المحيط إلى المحيط، قد أصبح مستعمرة كبرى للغرب والغربيين. أما الشرقيون، الشرقيون الذين يفاخرون بماضيهم، ويتباهون بآثارهم، ويتبجَّحون بأعمال جدودهم، فقد صاروا عبيداً بأفكارهم وميولهم ومنازعهم للفكرة الغربيّة، والميول الغربيّة، والمنازع الغربيّة.

ليس بحثنا في: هل المدنيّة الغربيّة صالحة في ذاتها أم غير صالحة؟ فالمدنيّة الغربيّة قد وقفت سنة 1914 أمام منصّة القضاء السرمدي، ولم تزل واقفة هناك. ولو انتدبني القضاء السرمدي لإصدار حكمه عليها لفعلت، وكنت بما أقوله على وفاق تام مع أكثر مفكِّري الغرب. نحن نبحث الساعة في: هل الأقطار العربيّة ناهضة أم غير ناهضة؟ ونبحث في ما تتناوله لفظة «نهوض» من المعاني وما تقرِّره من النتائج.

إذا كان النهوض بالتلمذة، وما يظهره التلميذ في بعض الأحايين من المقدرة على الاقتباس السطحي، فالأقطار العربيّة إذاً ناهضة. إذا كان النهوض بترقيع البالي، فالأقطار العربيّة أحرى الأقطار بالإعجاب.

إذا كان النهوض بأن يرتدي شعب ثوباً فُصِّل لشعب آخر، فالأقطار العربيّة قد بلغت المحجّة. إذا كان النهوض بتبييض القاتم، وتكليس المتداعي، وترميم المهدوم، فالأقطار العربيّة قد وصلت إلى أوج المجد والسؤدد.

إذا كان النهوض بأن ننظر بمكبِّرات الجهالة، فنرى النملة فيلاً والبعوضة جملاً، فالأقطار العربيّة قد نهضت حتى ناطحت المجرّة إذا كان النهوض بالانصراف عن النبيل لصعوبته، والاستسلام إلى التافه لسهولته، فالأقطار العربيّة قد أصبحت في مأمن من تقلُّبات الزمن.

ولكن، إذا كان النهوض بالاختراع والاكتشاف، فالأقطار العربيّة ما برحت هاجعة، هذا إذا نظرنا إلى الاختراع والاكتشاف بعَيْنَي المشغوف بالمدنيّة الغربيّة وما فيها من المستحدثات الآلية. وإذا كان النهوض بالروح والجوهر فالشرق العربي ما برح بروحه وجوهره حيث كان منذ ألف سنة. وإذا كان النهوض باليقظة المعنوية، وما يلازمها من معرفة باطنية وشعور صامت، فالشرق لم ينهض بعد لأنه لم يهبط قطّ؛ فالكنوز التي اكتشفها لم يفقدها، ولكنه تعامى عنها. وشجرة الدرّ التي غرسها في التربة القدسية، وسقاها دمه ودموعه لم تزل غضّة الأفنان شهيّة الأثمار، غير أنه تحوَّل عنها، وراح يستظلّ بشجرة أخرى.

لو أتيح لنا الوقوف هنيهة على قمّة من قمم التجريد مستعرضين مآتي العصور الغابرة لرأينا أن نهضات الأمم ووثباتها لم تكن بما أوجدته لمنفعة خاصة بها، أو لمجد محدود بحدودها وتخومها، بل كان بما

تركته إرثاً للأمم التي جاءت بعدها، وعلمنا أن زبدة العهد الذي كان فجره في بابل ومساؤه في نيويورك هي بالحقائق العامة الشاملة التي اكتشفها الإنسان وأثبتها، وهي بالجمال المطلق الذي رآه في الكيان، فوضعه بقوالب خالدة، وأوقفه أبراجاً ذهبية أمام وجه الشمس. فإن ذكرت النهضات الروحية قلنا كان موسى نهضة إسرائيل وموسى لم يزل ناهضاً. وكان بوذا نهضة الهند وبوذا لم يزل ناهضاً. وكان كنفوشيوس نهضة الصين وكنفوشيوس لم يزل ناهضاً. وكان زردشت نهضة الفرس وزردشت لم يزل ناهضاً. وكان يسوع الناصري نهضة من ليس لهم أمّة ولا وطن ويسوع الناصري لم يزل ناهضاً. وكان محمد نهضة العرب ومحمد لم يزل ناهضاً. وإن كان بنا ميل للآداب والفنون- وما الآداب والفنون من الدين إلا بمقام الشرح من المتن- رأينا رموز تلك النهضات العلوية ظاهرة بجلاء في مزامير داود، وسفر أيوب، والحكايات الهندية، والأمثال الصينية، وفي آيات علي، ونظريات الغزالي، ونفحات الفارض، وغصات المعري، وفي رؤيا دانتي، وتماثيل ميكل أنجلو، وروايات شكسبير، وأنغام بيتهوڤن. وإن كان بنا نزوع إلى العلوم الإجرائية وجدنا أنه رغم ما يهدمه كل عصر مما بناه العصر الذي تقدَّمَه، فالقليل الباقي كان، وسيكون لنفع المجتمع الإنساني. ولكن إذا تتبَّعنا وتفحَّصنا حقيقة الذين اشتغلوا بالعلوم الطبيعية والفلسفية من جالينس إلى لستر، ومن إقليدس إلى أينتين. ومن يعقوب الكندي إلى باستر، وجدنا أن كل فرد منهم كان نتيجة مقرّرة لعزم كامن في عقلية شعبه، ولم يكن قَطّ ظلّاً مرتعشاً لعقليّة في الشعب الآخر.

ظهر مما تقدَّم أن النهضات بالمصادر لا بالفروع، وبالجوهر الثابت لا بالأعراض المتقلِّبة، وبما ينشره الوحي من غوامض الحياة لا بما يحوكه الفكر من الرغائب الوقتية، وبالروح المبدع لا بالمهارة المقلِّدة،

فالروح خالد، وما يبينه الروح خالد، أما المهارة فقشور مصقولة تزول. وما تعكسه على أديمها المصقول فأخيلة تضمحلّ.

وإذا ثبت ما تقدَّم تقرَّر لدينا أن الأقطار العربيّة ليست بناهضة إذا كانت تحسب النهوض في تقليد المدنيّة الغربيّة الحديثة، تلك المدنيّة التي يرتاب بها أبناؤها العقلاء، ويكرهون أكثر مظاهرها.

ولكن إذا عادت الأقطار العربيّة وتنبَّهت إلى ما في ذاتها الخاصّة من القوى، ووقفت متهيِّبة أمام كنوزها المعنوية القديمة تكون ناهضة حقيقة، وتكون نهضتها قائمة على أساس وطيد وليست بفوران وقتيّ لا يلبث أن يخمد.

***

السؤال: «هل تعتقدون بإمكان تضامن هذه الأقطار وتآلفها؟ ومتى؟ وبأي العوامل؟وما شأن اللغة في ذلك؟»

هذا سؤال يتناول النهوض من حيث هو سياسة لا من حيث هو يقظة معنوية. لا بأس فهذا جوابي:

في عقيدتي أنه ليس بالإمكان تضامن الأقطار العربيّة في زمننا هذا، لأن الفكرة الغربيّة القائلة بميزة القوة على الحق، والتي تضع المطامع الاستعمارية والاقتصادية فوق كل شيء، لا تسمح بذلك التضامن ولن تسمح به طالما كان لها الجيوش المدرَّبة والبوارج الضخمة لهدم كل ما يقف في سبيل منازعها، استعمارية كانت أم اقتصادية. وكلُّنا يعلم أن كلمة ذلك الروماني «فرّق تَسُدْ» لم تزل قاعدة مرعيّة في أوروبا. ومن نكد الدنيا، من نكد الشرق والغرب معاً، أن يكون المدفع أقوى من الفكر، والحيلة السياسية أفعل من الحقيقة.

وأنّى للأقطار العربيّة التضامن وقلب كل قطر منها يخفق، لكن بصدر عاصمة من عواصم الغرب؟ وكيف تستطيع الألفة والتعاون وكلّ منها يستمدّ ميوله السياسية والعمرانية والاقتصادية من زاوية بعيدة من زوايا الغرب؟

إذا كان القُطر الواحد من الأقطار العربيّة يريد أن يتّفق سياسياً مع القُطر الآخر فعليه أن يأخذ منه ويعطيه. وإذا كان يريد أن يلتحم به إدارياً فعليه أن يقرّبه، ويقترب منه. وإذا كان يريد أن يستعين به اقتصادياً فعليه أن يؤثِر مبادلته على مبادلة البلاد الأخرى. فهل فهم القوم في الشرق العربي هذه الأوَّليّات البسيطة، البسيطة إلى حَدّ الابتذال؟

أقول إنهم لم يدركوها بعد، وأقول إنهم لن يدركوها حتى يكتشفوا في نفوسهم ما هو أعمق منها وأبعد.

ألا فليخبرني الفهماءُ: هل يفضِّل السوري الأخذ والعطاء مع المصري على الأخذ والعطاء مع الغربي؟ وهل يؤثِر المصري الاقتراب من السوري على الاقتراب من الغربي؟ وهل العربي في الحجاز أو اليمن أو العراق أشد رغبة في مبادلة المصري أو السوري منه في مبادلة الغربي؟

وليخبرني الأذكياء: هل يمكن التضامن السياسي أو غير السياسي بدون التضامن الاقتصادي بل الاستقلال الاقتصادي؟

وبعد ذلك فليقلْ لي العقلاء والوجهاء وقادة الرأي العام: هل يرغبون حقيقة في نهضة الأقطار العربيّة وفي تضامنها وفي استقلالها، وجلّ ما يفعلونه في هذا السبيل إبداء آرائهم، وأكثرها بليدة وعقيمة، أما أعمالهم الخاصة ومأتيهم الذاتية وكل ما تتناوله حياتهم اليومية فتخالف مزاعمهم، وتنكر عليهم دعواهم. فهم إن أكلوا فُبصُحون غربية، وإن

شربوا فبكؤوس غربية، وإن لبسوا فالأثواب الغربيّة، وإن ناموا فعلى أَسِرّة غربية، وإن ماتوا كُفِّنوا بقماش منسوج في معامل غربية؟

أليس من المضحك أن يجيئني «الوطني الحرّ والسياسي المحنَّك» ليحدِّثني في شؤون الأقطار العربيّة، ولكن بلغة غربية؟

أليس من المبكي أن يدعوني إلى منزله لأحصل على شرف المثول أمام زوجته المهذَّبة، المهذَّبة في المعاهد الغربيّة؟

أليس مما يدمي القلب أن أجلس إلى مائدته وابنته اللطيفة تحدِّثني عن أغاني شوبان، وابنه الأديب يردِّد على مسمعي قصائد دي موسه، كأن الروح السائرة مع الريح لم تسكب النهوَند، والبيان، والرست في القلب الشرقي، وكأنها لم تتكلَّم قَطّ بلسان المجنون، والشريف الرضي، وابن زريق؟.

وبعد كل ذلك. أليس مما يستوجب الغضب أن يقودني هذا «الوطني الحرّ» إلى ردهة الاستقبال ليتابع أحاديثه السياسية، ويعرض عليّ آراءه في تضامن الأقطار العربيّة نيابياً واستقلالها إدارياً واقتصادياً؟

لو قال لي هذا الوطني السياسي، الذي يلعب دورين بليدين في وقت واحد، لو قال لي ولو بشيء من النزاهة: «الغرب سابق ونحن لاحقون، وعلينا أن نسير وراء السابق، ونتَدرَّج مع الدارج» إذاً لقلت له: «حسناً تفعلون. الحقوا السابق، ولكن الحقوه صامتين، وسيروا وراء السائر، ولكن لا تدّعوا بأنكم غير سائرين، وتدرَّجوا مع الدارج، ولكن كونوا مخلصين للدارج، ولا تخفوا حاجتكم إليه وراء غربال من الخزعبلات السياسية. وماذا عسى ينفعكم التضامن في الأمور العرضية وأنتم غير متضامنين في الأمور الجوهرية؟ وماذا تجدي الألفة في المزاعم وأنتم

متباينون في الأعمال؟ ألا تعلمون أن الغربيين يضحكون منكم عندما تحلمون الليل وطوله بالألفة المعنوية، والجامعة الجنسية، والرابطة اللغوية حتى إذا ما جاء الصباح سَيَّرتم أبناءكم وبناتكم إلى معاهدهم ليدرسوا على أساتذتهم ما في كتبهم؟ ألا تعلمون أن الغربيين يسخرون بكم عندما تظهرون رغبتكم في التضامن السياسي والاقتصادي مع أنكم تطلبون إليهم أن يبدِّلوا المواد الخام التي تثمرها أرضكم بالإبرة التي تخيطون بها أثواب أطفالكم، والمسمار الذي تدقّونه في نعوش أمواتكم؟».

هذا ما أقوله لمن يسمع، ويسمع بشيء من النزاهة. أما الصُّمّ، أولئك الذين لا يسمعون حتى ولا همس نفوسهم، فلهم الحصّة الكبرى من عطفي وشفقتي. أما نصيبهم من صوتي فمثل نصيبي من آذانهم.

يتَّضح مما تقدَّم، ولكن بصورة سلبية، ما أحسبه أفضل العوامل التي تؤول إلى تضامن الأقطار العربيّة وتآلفها بل واستقلالها... أما الصورة الإيجابية فهي تنحصر في أمرين أساسيين: أولهما تثقيف الناشئة في مدارس وطنية بحتة وتلقينها العلوم والفنون باللغة العربيّة؛ فينتج عن ذلك الألفة المعنوية والاستقلال النفسي، وثانيهما استثمار الأرض واستخراج خيراتها وتحويل تلك الخيرات بواسطة الصناعة الشرقية إلى ما يحتاجه القوم من مأكل شرقي وملبس شرقي ومأوى شرقي؛ فينتج عن ذلك التضامن الاقتصادي ثم الاستقلال السياسي.

***

السؤال: «هل ينبغي لأهل الأقطار العربيّة اقتباس عناصر المدنيّة الغربيّة؟ وبأيّ قدر؟ وعند أي حَدّ يجب أن يقف هذا الاقتباس؟».

في مذهبي أن السرّ في هذه المسألة ليس بما ينبغي أن يقتبسه الشرق أو لا يقتبسه من عناصر المدنيّة الغربيّة، بل السرّ كلّ السرّ هو ما يستطيع الشرق أن يفعله بتلك العناصر بعد أن يتناولها.

قلت منذ ثلاثة أعوام أن الغربيين كانوا في الماضي يتناولون ما نطبخه فيمضغونه ويبتلعونه محوِّلين الصالح منه إلى كيانهم الغربي، أما الشرقيون في الوقت الحاضر فيتناولون ما يطبخه الغربيون ويبتلعونه ولكنه لا يتحوَّل إلى كيانهم الشرقي، بل يحوِّلهم إلى شبه غربيين، وهي حالة أخشاها وأتبرَّم منها، لأنها تبيِّن لي الشرق تارة كعجوز فَقَدَ أضراسه، وطوراً كطفل بدون أضراس.

لقد طرحت الكثير من أفكاري بين ملتويات الأعوام الثلاثة الأخيرة، أما هذه الفكرة فلم تزل تلازمني، فما خشيته، وتبرَّمت منه إذ ذاك أخشاه، وأتبرَّم منه الآن. بل هناك أمر أدعى إلى الوجل والقنوط، وهو أن أوروبا في أيامنا هذه تقلِّد أميركا، وتتبع خطواتها بينما الشرق العربي يقلِّد أوروبا، وينحو نحوها. أعني أن الشرق العربي قد صار مقلِّداً للمقلِّدين وظلّاً للأظلال. أعني أن الإسفنجة قد أصبحت لا تمتصّ من الماء إلا ما يتسرَّب إليها من الإسفنجة الأخرى، وهذا منتهى الضعف والاتِّكال على الغير، بل هذا منتهى الغباوة والعماية لأن الشرقيين في غنى عن الاستعصاء فضلاً عن استعطاء المستعطي.

لو كان بإمكان الشرقي أن يقتبس ما يجهله بدون أن ينقلب المُقتبَس سمّاً قاتلاً لما كان يعرفه لكنت أول الداعين إلى الاقتباس. ولو استطاع الشرقي أن يستعير ما يحتاجه بدون أن يجعل المستعار قبراً لما كان حاصلاً عليه لكنت من محبِّذي الأخذ والنقل والاحتذاء، ولكنني نظرت فرأيت الفطرة المبدعة في نفس الشرقي قيثارة دقيقة الأوتار ذات

قرارات تختلف بطبيعتها عن كل قرار في كل وتر من كل قيثارة غربيّة، والشرقي لا يستطيع الجمع بين نبرات وسكنات نغمين متباينين بدون أن يفسد أحدهما أو كليهما.

كثيراً ما نسمع السطحييّن يقولون «هي ذي اليابان قد اقتبست المدنيّة الغربيّة فتقدَّمت، وأفلحت، وعظم شأنها حتى صارت تضاهي أعظم الأمم وأقواها».

ولكن اليابان في شرع حكمائها ومفكّريها وأدبائها قد أضاعت مدنيَّتها الخاصَة بها عندما تمشَّت وراء المدنيّة الغربيّة، ويقولون إن الشعب الياباني قد فقد عقليّته وسليقته وأخلاقه وفنونه وصنائعه وراحة قلبه عندما انصرف إلى تقليد أوروبا وأميركا، ويقولون إن انتصارات اليابان العسكرية كانت، بالحقيقة، انكسارات معنوية ساحقة، ويقولون إن المدرَّعات والمدافع والآلات التي تعلَّموا كيفية صنعها من ألمانيا والولايات المتحدة قد هدمت الجميل والنبيل والحيوي والنافع في المدنيّة اليابانية، ولم تثمر غير البشاعة والسماجة والثعلبة والسخافة.

في الشرق، في منزلنا القديم، كنوز وذخائر وطرائف لا عداد لها، ولكنها مشوَّشة متراكمة محجوبة بغشاء من الغبار. ومن المعلوم أن الغربيين قد أتقنوا فن الترتيب حتى بلغوا أقصى درجاته، فهم إن رتَّبوا عيوبهم ظهرت كأنها حسنات جليلة، وإن رتَّبوا حسناتهم بدت كأنها معجزات رائعة. فإذا كان لابُدَّ من الاقتباس فلنقتبس هذا الفنّ عن الغربيين بشرط ألّا نقتبس سواه.

أمين واصف بك

أمم الشرق الأدنى ليست أمماً همجية على فطرتها الأولى، ولا هي من أجناس البشر المنحطّة فتحتاج في تحضُّرها إلى أزمان طويلة أو عوامل جبّارة كمطارق الحديد وأفران المعادن. إنما هي أمم تأخَّرت في المدنيّة، ولكنّ بها أسباباً ذاتية كامنة للرقي لأنها تراث خمس حضارات كبرى: فارسية. وهندية. ويونانية. ورومانية. وإسلامية.

وقعت هذه الأمم بفعل الحكومات القاسية في سبات اجتماعي عميق عدّة أجيال، لأسباب معروفة في التاريخ، فلمّا جاءت الحرب الكبرى، وأزاحت عنها الكابوس الروسي والضغط الأوروبي الاستعماري أصبحت اليوم في حالة تسمح لها بالرقيّ. ويكفي في يقظتها نفس عوامل النهضة التي أيقظت غيرها. لا سيَّما وقد أصبح من المحال لدول الاستعمار الآن أن تقبض عليها بتلك اليد الحديدية القديمة.

يتوقّف رقيّ الأمم الشرقية على دقّة أساليب الحكم القومي فيها. ومما يشير بحسن المستقبل، ويعَدّ فألاً ميموناً كثرة البعوث العلمية التي لهذه الأمم بأنحاء أوروبا؛ فالأفغان وأهل أذربيجان (على الأخص) نحوا نحو الترك والهند في إرسال مئات الطلبة إلى المعاهد الأوروبية لكل فنّ ومطلب.

رقيّ الأمم يسير تحت نواميس طبيعية لا مفرّ منها كرقيّ سائر الكائنات الحيّة. والحوادث التاريخية إنما تعيق سيره أو تحوِّله زمناً طويلاً أو قصيراً. ولكنه لا يلبث أن يعود إلى مجراه الطبيعي. هذه النواميس الطبيعية تتعلَّق بالأسباب الذاتية في كل أمّة دون غيرها. وأثر أي حادث في الأمّة

يكون قليلاً أو كثيراً بنسبة تلك العوامل الذاتية، أي استعدادها. وهذا ما عليه العلم الحديث اليوم. فمصر مثلاً سبقت أمم الأرض إلى الحضارة الأولى، ونمت تحت سمائها الوثنية، فأزهرت، وأثمرت، ثم جاءتها النصرانية فأزهرت وأثمرت، ونافست نصرانيتها رومية والقسطنطينية، وكان لمدرسة الإسكندرية شأن كبير وتعاليم قيّمة أخذت بها كنائس العالم شرقاً وغرباً. ثم دخلها الإسلام الذي تضعضع في كثير من بلاده اليوم إلا مصر، لازالت هي كعبة العالم الإسلامي يأتي إليها طلاب الدين الحنيف من جميع الآفاق. وسيكون لها شأن أكبر في تقدّم الحضارة العصرية كسرعة البرق. وموعدنا – إن شاء الله – دخولنا في الحياة البرلمانية التي نحن على أبوابها الآن.

إن أركان الحضارة الرقيّ الاجتماعي والسياسي والاقتصادي. أما الرقيّ الاجتماعي والسياسي فأساسهما المساواة في الحقوق لجميع أفراد الأمّة، والنظام النيابي. وهذه المبادئ ليست غريبة عن الأمم الشرقية ولا حادثة على عقولهم؛ لأن جميع هذه المبادئ الديموقراطية مبادئ إسلامية صرفة في جملتها وتفصيلها. أعتبر ذلك فيما تطلبه أمم الشرق عامة من المجالس النيابية اليوم، وتثور من أجلها. وناهيك ما تَمَّ في بلادها من المستشفيات والملاجئ ودور الكتب والجمعيات الخيرية على اختلاف أنواعها وأغراضها.

والرقي الاقتصادي شمل جميع الأقطار، وهو الأثر الجليل للاستعمار الأوروبي بلا جدال، فقد مُدَّت السكك الحديدية، وأُنشِئت خطوط الملاحة البحرية والأسلاك البرقية، وانتشرت الآلات التجارية والسيارات. وجابت الصحف والمجلّات الممالك بمختلف اللغات، فجعلت العلم شائعاً بين جميع الأمم. فكلّ اكتشاف علمي يخرج من وطنه صباحاً يبيت في حواضر الأرض ليلته. وإنه ليوجد في العالم الإسلامي اليوم

أكثر من ثمانمئة صحيفة ومجلّة. وكلّها تنقل العلم عن صحف أوروبا وأميركا.

هذه الأمم التي تناكرت حيناً من الدهر بسبب تعدُّد الحكومات الأجنبية التي استولت عليها، وبسبب جهلها وغفلتها. لابدّ لها من الاتحاد السياسي في القريب العاجل، لحفظ كيانها واستبقاء حريتها واستقلالها، وستتخذ سبيل الدين والخلافة لتحقيق أمانيها دون اللغة لتعدُّدها وعدم صلاحيَّتها للوحدة.

ولا يخفى أن الحضارة الغربيّة فيها مزاياها ولها عيوبها: فبينما تجد عجائب العلم وآيات الصناعات تجد إلى جانبها ذلك شيئاً من فوضى العقول وفوضى النظام، وفوضى الأخلاق.

فما مذاهب الاشتراكية المتطرِّفة والبلشفية والفوضوية وغيرها إلا فوضى عقلية إثمها أكبر من نفعها. ولله الحمد أن هذه النظامات الاجتماعية لا تتّفق والتعاليم الإسلامية، ولا تنبت في أرض إسلامية إلى حين.

وما الجمهورية وهي في عُرف الغرب المثل الأعلى لما تعارف من الحكومات إلا فوضى سياسية عند بعض الأمم. وأظنها في الشرق لا تفيد؛ لأن أهل الشرق أقوام ذوو عصبيات، ولهم منازعات على الزعامة خبرت ديارهم أحقاباً. وتاريخ الشرق ديوان العبر.

فواجب الأمم الشرقية ألاّ تدخل من النظم الأوروبية أرقى نظام، بل أَلْيَق نظام يتمشّى مع حالتها السياسية والاجتماعية لأن الطريق المأمونة في سياسة الشعوب هي الطريق العملية لا النظرية.

وإذا صرفنا النظر عن أقوال المتشدِّدين من متأخِّري المسلمين وجدنا الإسلام ديناً ذا مرونة تامة. والعرب في الصدر الأول أخذوا بأنظمة

الروم في الشام ومصر، وبأنظمة الفرس في العراق وفارس وما وراء النهر، ووضعوا نظام حكوماتهم على هذه النظم الأجنبية عنهم، ولم يتحرَّجوا في اختيارها والعمل على أصولها.

كذلك الاحتفاظ بالعادات القومية أمر واجب وفيه استبقاء للذاتية القومية. ولكن اقتباس العادات الغربيّة موضع التدقيق والحذر حتى لا يدخل منها إلا محاسن الأخلاق وقويم العادات.

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وللغربيين عادات كثيرة يشكون منها ويتأفَّفون، ولكنها تأصَّلت في مجتمعهم، وتورَّطوا فيها، فلم يعد لهم مخرج منها ولا محيص عنها كالخمور وتبرُّج النساء وغيرها. فليحذر الشرقيون خطر الوقوع في وعثائها، فإنها أمراض اجتماعية معضلة.

قال الأستاذ المحقِّق (إدوار مونتيه): إن احتفاظ المسلم بعقيدته وفيها ما يوجب عظيم احترامها، وممارسته لآداب لغته وفيها ما يدعو للإعجاب بها، لا يحولان قط دون تحرير الإسلام؛ فإن الإسلام يمكنه في تطوُّره أن يتمشّى جنباً إلى جنب مع أرقى الأمم التي تحكم العالم الآن، ويتَّخذ سبيلها التي رسمته للحياة والمدنيّة من غير أن يحمل المسلم على ترك عقائده، أو ينصرف عن ممارسة لغته الجميلة وآدابها الرائقة.

أما الآداب والشعر فيسيران ببطء طبعاً لأنهما يتعلَّقان باللغة القومية لكل أمّة، ولا يتطور أحدهما إلا رويداً رويداً بثقل أدب اللغات الأخرى على ما يألفه ذوق الأمّة المنقول إلى لغتها. وناهيك ما كان لأدب اللغة الفارسية من الأثر البيِّن في أدب اللغة العربيّة كما يتضح من الفرق بين الشعر الجاهلي وشعر المولِّدين.

حبذا لو أقلع الشعراء في قرض الشعر العربي عن مألوف العادة بجعل القصيدة الواحدة من مختلف الأبحر والقوافي كما هي سنن الفرنج، ليجد الشاعر مجالاً متَّسعاً لتصوير عواطفه وتمثيل أفكاره، لا سيما في وضع الروايات التمثيلية المنظومة (كالأُبِرا) المحرومة منها اللغة العربيّة واللغات الشرقية عامة. ولنا في فنون الأَدب الأندلسي خير قدوة وأَقْوَم مثال.

أما التربية فيجب حتماً أن تكون على الأصول الدينية للمسلمين وغيرهم من الشرقيين؛ فإن التربية إذا خلت من عواطف الدين كانت ضعيفة الأثر في الأخلاق والضمائر، فليس كالدين في سلطانه على الضمائر. ولا يخفى عليك أن العظمة الشخصية والقوة المعنوية للأمم لا تأتي إلا من طريق الدرس المنظّم أو التربية العملية للعقل والقلب معاً.

مصر - أمين واصف

العلّامة «مستهل»

إن ما نراه من النهضة في الديار العربيّة اللسان، يحملنا على القول بأن هذه النهضة ليست فوراناً وقتياً، وإنما هو نتيجة أربعة أمور، وهي: انتباه العرب من سباتهم الطويل، الميل إلى الحياة القومية، بقاء القوم ببقاء لغته وأخلاقه ومقوِّمات مجتمعه وحالته الفكرية، ضغط الأغراب عليه.

1- أما انتباه العرب في عصرنا فظاهر من أن سكّان جميع الديار الناطقة بالضاد، تدفع أبناءها إلى تحصيل العلوم، واتقان الفنون، والوقوف على أسرار الصنائع والبدائع، والتصعيد في مكارم الأخلاق، وتنزيه الطباع عن شوائب النفس الحيوانية الأمّارة بالسوء، وكلها أمور لا تتولّد في أمّة، وتنمو في صدور أصحابها، إلا وتدفع أصحابها إلى التبسُّط في العمران، والتبحُّر في الحضارة والتسيطر على غيرها ممن يرسف في قيود ما يخالف هذه الوسائل المرقية الآخذة إلى أوج الكمال.

وتاريخ الأمم في كل واد وناد هو أهدى دليل إلى إثبات ما نراه. أو ليس السبات الذي وقع عليهم هو الذي أدّى بهم إلى التسفُّل الذي كانوا قد صاروا إليه قبل هذه اليقظة التي انتبهوا منها الآن؟

2- وكيف لا ينهضون، وفيهم من الميل إلى التمسُّك بعروة قوميتهم، على وجه لا يقلّ شدّة أو قوة عما يشاهَد في غيرهم من الأجيال التي هي دونهم سعياً وهمِّة ونشاطاً؟ أو ليست القومية هي اليوم مطمح كل أمّة، وضالّة كل قبيل؟ أو لا تعلم أنه لا يفوز بها إلا من توافرت فيه خصال الذود عن الوطن، والذبّ عن حياض الحرمات، وبذل المُهَج في سبيل تحقيق الأماني، والجدّ والمثابرة على تحصيل ما يمنّي المرء به نفسه.

وما الحياة إلا هذه الأعمال من تعويض ما يندثر في جسم المجتمع من الخلايا، لما يقع فيها ما يضنيها أو يفنيها، وإبدالها بما يقوم مقامها، أو بما هو أحسن مما اندثر منها. وهذه الإمارات، إمارات الحياة الجديدة تُرى متدفِّقة السيل في المجتمع العربي، إذ لا يزال السقيم من مندثره يبدل بأصلح منه وأصحّ، بحيث يعوّض عنه أحسن تعويض، إلى أن يتمّ على وجه سويّ، فيتكامل.

3- والقوم الذي بقي في وسط أجيال مختلفة اللسان والنجاد والأخلاق والبيئة، وقاوم مقوِّضات الأمم وقوارضها، يبقى ما بقي الدهر. وما من باقٍ إلا ويثوب إليه رشده، ويعود إليه ماء عوده، فتتجدّد في معاطفه مقوِّمات الحياة، على حد ما يرى في تجدُّدات الطبيعة وكرّات معادها إلى الشباب كلما انتابتها نوبة الصيف أو الخريف أو الشتاء.

وأنت خبير بأن لسان العرب قتل كل لسان سواه كان في الديار التي عرف فيها، إذ في لسان العرب من قوّة الحياة وجواهر النموّ وأداء المراد مما ينشأ من بلوغ الحضارة الرقيّ النازعة إليه في كل عصر ومصر ما يشهد له آداب العرب، وتبسُّطهم في العمران. ونقل كتب الأعاجم على اختلاف عناصرهم ولغاتهم وبيئاتهم، ومما يجعل لهذه اللغة الفذّة المقام الرفيع بين لغات العالم. وهي - إن شاء علماؤها - تؤدّي لهم كل ما يحتاج إليه أبناء العصر من المعاني الطريفة، والأوضاع الحديثة، بدون أن يمدّوا أيديهم إلى سائر اللغات الأجنبية.

وفي أخلاق العرب من بذور المكارم ما قلَّما يُرى مثيله في سائر الأقوام. والأجناب[1] لا ينكرون عليهم هذه المثاقب الجليلة، بل يصرِّحون بها أوضح تصريح في أسفارهم وصحفهم. هذا فضلاً عن حالتهم الفكرية،

(1) جمع جنب أي أجنبي.

ففيها من الصفات ما لا يمتزج بفكرية أبناء الغرب أبد الدهر، وفيها من السذاجة والمناعة والقوة ما يفيض على أصحابها بحياة لا تعرف الزوال، بل تعرف البقاء ما بقي الدهر.

4- على أن الذي يزيد هذه الحياة نشاطاً ونموّاً حثيثاً، ويدفعها إلى التفجُّر والتدفُّق محاولة الأجانب قتلها أو خنقها. وكل قوة أو فعل إكراه على الانحصار، أو على الاختفاء، أو على الإخبات، أو حاول الغير خنقه أو قتله باتّخاذ وسائل عنيفة أو شديدة، تنقاد له تلك القوّة صاغرة إلى مدة، وإذا جمعت تلك القوة المحصورة مما يتحلَّب إليها سراً من هنا وهناك، تفجَّرت بشدة لا يقوى عليها أدهى الدهاة لكبحها، بل ولا أقوى القوى لأن هذه لا تأتي إلا من بعد اندفاق السيل الجحاف، ومن بعد أن يكون هذا السيل قد جرف باندفاعه كل ما قام في وجهه من العقبات.

وعليه، إذا كان أبناء الغرب يتمكَّنون اليوم من الضغط على أبناء عدنان وقطحان فإنه تأتي ساعة لا يعرفونها، وهي الساعة التي تفيض فيها حياة الناطقين بالضاد، ساعة قد عجّلوا في قدومها، فيندمون فيها كل الندم. ولات ساعة مندم.

أما اعتقادنا بإمكان تضامن هذه الأقطار وتآلفها، ومتى، وبأي العوامل، وما شأن اللغة في ذلك. فجوابنا عليه واضح مما تقدَّم بسطه في صدر هذا المقال، فإن تضامن هذه الديار وتآلفها ممكن. بل لابدّ منه، لأن نزعات تلك النفوس واحدة، والضغط عليها واحد، ومحاولة العرب التخلُّص من قهر الغرباء لهم بَيِّن في جميع تلك الربوع، والحياة القومية سائرة في وجهها اضطراراً لا محيد عنه.

أما متى يكون هذا التضامن، فإنما يتمّ عند نضج القوى الثانوية المقوِّمة للقوة الأولى أو العظمى. والقوى الثانوية هي قوة العلم، وحسن الأخلاق،

وقوة المال، وقوة الزراعة والصناعة، وبدون هذه القوى، ليس من قوة حقيقية للأمّة، وليس لها من حياة صادقة معمّرة، فهي العوامل الفعّالة، الموصلة إلى الغاية التي ترمي إليها الشعوب في حضارتها وعمرانها الدنيوي. فعلى أبناء يعرب السعي وراء تشديد القوى الثانوية من ترقية العلم، وتحسين الأخلاق، واكتناز المال من باب الحلال، وإتقان الزراعة، وتعميم الصناعة التي تستغني بها أمّة عن أمّة للبلوغ إلى مطلبها العزيز.

أما وجوب اقتباس العرب لعناصر المدنيّة الغربيّة فظاهر من تنازع البقاء، واتّخاذ أكمل الأسلحة لمقارعة الأقران.

إنك إذا أرت اليوم أن تحارب قوماً يحاول البطش بك فإنك تلجأ إلى أقوى سلاح، ولا يمكنك أن تلجأ إلى الأسلحة التي كانت تُستَعمل في القرون الخالية، بل ولا يجوز لك أن تفكِّر بها لحظة من الزمن، إذ يفوتك الوقت، ويتسلَّط عليك عدوّك، وتصبح أسيراً له.

والمدنيّة الغربيّة نتيجة عقول عديدة مفكِّرة، وعجينة مختمرة قد حان لك أن تخبزها لتأكلها؛ فكيف تحاول أن تحيا ولم يبق فيك إلا الرمق الذي يمكنك أن تحافظ عليه بأكل ما تيسَّر لك تحت يدك؟ وكيف تدعه، وتذهب إلى زرع حنطة جديدة وسقيها، والاعتناء بها، وحصد سنبلها، وإخراج حَبِّها، وطحنه، وعجنه، وتخميره، وخبزه؟ فكما أنك تضحك من هذا الرجل الذي يأبى أن يأكل مما تيسَّر له من الخبز المُعَدّ له ليعود إلى مبادئ اتخاذ الخبز للمعيشة، تضحك أيضاً مما يعدل عن اقتباس معدّات الحضارة العصرية، استهجاناً لها، أو تمسُّكاً بما كان بيد السلف الصالح من الوسائل التي كانت حسنة في وقتها، وأصبحت اليوم قاصرة عن إيصالنا إلى كعبة آمالنا.

وإذا كان لابدّ من اقتباس وسائل المدنيّة الغربيّة فيجب أن يكون بقدر

يكفينا، فإذا زاد عن الكفاية أَضَرَّنا؛ وهو الأمر الذي يرى في كل شيء من طعام وشراب ولباس ومنام، فإذا زاد كلّ من هذه الأمور عن اللازم، انقلب ويلاً علينا بعد أن كان خيراً لنا.

والقدر الذي يحسن بناء أن نتّخذه، يجب أن يكون ملائماً لأخلاقنا، وبيئتنا، وعوائدنا الحسنة (لا السيئة)، وبلادنا، وهوائها، مما يشير به علينا أصحاب العقول النيِّرة والخبرة الصادقة، والعمل الصالح، والآداب المحمودة:

أ - ففي النظامات السياسية الحديثة ينحصر منها في الحكم الجومي (الديموقراطي).

ب - وفي الأدب والشعر نأخذ منها ما يدنينا من تمثيل الحقائق ووصفها بأقرب وجه وأحسنه. وما كان يقال سابقاً «أكذب الشعر أطيبه» لا معنى له في عصرنا هذا، عصر التحقيق والتدقيق. وكذا يقال عن فروع الأدب.

ج - وأما العادات الاجتماعية، فلقد نشأ منها عند الغربيين ما أصبحت لهم أدواء ساحقة. إن لم تكن ماحقة. وهي إذا دخلت في مجتمعنا لاشته بالمرّة، فأنواع المقامرات، وضروب المنكرات والتردُّد إلى المواخير، والسهر الطويل، ومشاهدة الصور المندية للجبين، ومطالعة الكتب المفسدة والأزياء المنكَرة، إلى ما ضاهى هذه الأسباب أسباب الهلاك والإهلاك، كل ذلك مما يجب أن يُنفَى من حضارتنا العربيّة، وإلا فإن أخذنا من مدنيّة الغرب هذه العوامل الناسفة، فأقرأ على رُقِيِّنا السلام، وعلى أسباب عزِّنا وفخرنا الوداع الأخير.

د - ونأخذ من تربيتهم وتعليمهم ما يربّي في ناشئتنا النفس، ويعوِّدها

مكارم الأخلاق، ويشنع عليها الرذائل والمسكرات، ويحبِّب لها محاسن الدين، والعمل بأوامره، والازدجار بنواهيه، فالنفس هي أول ما يجب أن يعنى بها لأنها العامل الأول، ومهما يُتَّخَذ من الوسائل لإصلاح المرء فلا تكون إلا وسائل لا أثر لها على مصدر أعماله الذي هو النفس، وقد قيل:

عليك بالنفس فاستكمل فضائلها فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان

ومع تربية النفس يُربّى الجسم تربية تمكِّنه من مقاومة الأمراض، وتقلُّبات الجوّ وأحواله. وأحسن طريقة لتربية الجسم هي التِربية الألمانية؛ فإنها أظهرت من محمود العقبى في هذه الحرب ما لا يُنكَر، وإن دارت الرحى على الألمان لأسباب أخرى. كما أن أحسن تربية للنفس هي تربية البلجيكيين، فإنها جمعت بين الطريقة السكسونية والطريقة اللاتينية، فكان لها التفوُّق. وعلماء بلجيكا بالنظر إلى عددهم أوفر عدداً وأغزر علماً؛ ولهذا نرى في مدارسها طلبة من جميع الديار ومن لفيف العناصر. وكفى بالنتيجة الحسنى دليلاً على ما نذهب إليه. وهو الهادي إلى سواء السبيل.

بغداد «مستهل»

جميل صدقي الزهاوي

أجيب على السؤال الأول أن مصر هي اليوم بمثابة الرأس لجسد المجتمع في الشرق العربي وأهلها المتعلِّمون أكثر من غيرهم من سائر الأقطار العربيّة، والكتب التي تؤلّف فيها أو تُعرَّب، ومجلاتها وجرائدها تتوارد بكثرة إلى بقية الأقطار، فهذه كلها تفتق الأذهان وتنبِّه الرقود. مصر قد نالت نصيباً غير قليل من العلم، فهي خليقة بأن أرى في نهضتها ما يعطي شيئاً من الأمل، وتتلوها أختها سورية، ثم أخوها العراق. غير أن بقية الأقطار لم يزل أهلها راقدين في ليل من الجهل مظلم لا نجوم في سمائه، وإذا هَبَّت هنالك بعض الآونة زوبعة فإنها تثور في الغالب باسم الدين الذي لا تهمّه في الأكثر الدنيا والحياة، كما هي الحالة في اليمن، والحجاز، ونجد.

أما العراق فتكاد تكون حلقة وسطى بين مصر وهذه البلاد التي لم تبزغ عليها بعد شمس العلم. وعلى كل حالة فإن نهضة سورية والعراق تابعة لنهضة مصر، وأعتقد أن نهضة مصر قائمة على أساس، وإن لم يكن هذا الأساس اليوم وطيداً، وهي تبعث الأمل بالبقاء وإن لم يكن ذلك الأمل بعد قوياً.

العلم في الغرب جمّ   العلم في الشرق نزر

في الغرب للعلم مدّ   في الشرق للعلم جزر

نحن لا نيأس من نهضتنا، فإذا كانت ضعيفة وجب أن نقويها ببثّ العلم وتعميم التربية، فنعيد مجد الوطن المهان.

يا لَثديٍ قد غذت قو مي جيلاً بعد جيل
ولأمٍّ حضنت صحـــــــــــــــــــــــبي وأهلي وقبيلي
اخدموا الشعب بصدق واذكروه باحترام
لا تخونوا الشعب فالــــــــشَّـــــــعب عزيز ذو انتقام
أنا وازنت كثيراً بين موتي وبقائي
فوجدت الموت أولى من بقائي في الشقاء
ليس يغضي العربـيّ العين أن سيمَ صَغارا
إنه يسخط إن أغـــــــــــــــــــــضى معداً ونزارا
أيها الشرق انتبه ويــــــــــــــــحك من هذا السُّبات
واعدنْ من العلـــــــــــــــــــــــم سلاحاً للحياة

مصر هي اليوم نواة لسديم حيوي يتألّف منه نظام اجتماعي، أو هي جنين تتكوَّن منه في المستقبل إمبراطورية عربية مترامية الأطراف وسينمو هذا الجنين، ويلبس لحماً ودماً وافرين، ويبني له عظاماً قوية يستند إليها في حركاته. هذا إذا سارت مصر في طريق تقدُّمها سيراً حثيثاً مستمرّاً، واقتبست العلوم العصرية بتفاصيلها، فأكسبتها هذه مرونة تستطيع بها أن تنطق على ضرورات الزمان، فتتخلّص من التقاليد المؤخِّرة، والاعتقادات الباطلة المثبطة للعزم، والعادات الضارة بالمجتمع، وتنظِّم الأُسَر والعائلات نظاماً نافعاً يجعل الجنسين يدأبان معاً للتقدُّم في سبيل الحياة الشاقّة.

يرجع الشعب فريقا ن: إناث، وذكور
وهــل الطــائر إلا بجناحيه يطير؟

الويل كل الويل للعرب إذا أخفقت مصر -لا سمح الله- في طلب استقلالها إلى النهاية، فما هنالك إلا الموت الذي يعقب الداء العضال بعد تعذيب صاحبه أو اليأس الذي هو أحلك من ظلام القبر:

يا طبيبي جسّ نبضي ثم شخِّص لـي دائي
ثم صِــفْ لي بعد تشـ ـخيصك للداء دوائي
اذكـريني وتـعــالـــي قبلما الوقت يـفـوت
واحضري ساعة موتي وانظري كيف أموت

***

وأجيب على السؤال الثاني بأني معتقدٌ بإمكان تضامن الأقطار العربيّة وتآلفها بالفعل بعد خمس عشرة سنة أو عشرين على الأقل. وقد بدت تباشير هذا التضامن في كل قطر من الأقطار العربيّة على قدر انتباه أهله من سِنة الغفلة، فإن أهل هذه الأقطار أخذوا يتألّمون بألم واحد، ويتحسَّسون بإحساس واحد. والعامل الأول في ذلك هو الكتب التي تُنشَر في مصر سواء أكانت مؤلّفة أم معرَّبة، والجرائد السيّارة والمجلّات العلمية والأدبية، فإن كلّ هذه تنير العقول، وتنبّه الأذهان، وتربط المتنائين، وتجمع كلمتهم، وتبعث فيهم روح الوحدة، وتعلِّم الناس كيف يجب أن يسيروا في سبيل اجتماعها، وكيف يقتحمون العقبات للحصول على استقلالهم. والعامل الثاني هو البعثات إلى الأقطار العربيّة والمراسلات، والثالث هو تأليف جمعيات لهذه الغاية، والرابع هو دافع

طبيعي أعني به الاشتراك في البأساء التي تجلبها سيطرة الأجانب على شعوب كانت مطمئنة في بلادها لم تأت ما يضرّ بغيرها فإنه يجمع القلوب، ويلهمهم الاتحاد والتعاون.

وشأن اللغة في كل ذلك كبير، فإنها الرابطة العنصرية التي هي أقوى الروابط والجامعة الطبيعية للشعوب، والواسطة الوحيدة للوحدة والتضامن والتفاهم.

العروبة قائمة باللغة فما من عروة إلا أمكن انفصالها سوى هذه، فإن عروقها ممتدّة إلى تلافيف الأدمغة ومتفرِّعة في مخادع الأرواح. واللغة هي التي حفظت إلى اليوم العرب، وعَصَمتهم من الاندماج في الشعوب التي ملكتهم عصوراً. وهي التي جعلت أبناءها يتساءلون عن بعضهم، ويتراسلون فيما بينهم، ويتشاركون.

وإني لا أزال مؤمّلاً تضامن الأقطار العربيّة ما دامت لغتهم حَيّة يتكلَّمون بها، ويتكاتبون بواسطتها أفكارهم وإحساساتهم، أما إذا ماتت اللغة فلا تضامن، ولا وحدة، ولا عروبة، ولا حياة.

هنالك يذكر التاريخ بين الأمم البائدة أمّة باسم «العرب» ممجِّداً آباءها الفاتحين ومقبِّحاً أبناءها الكاسلين الذين ساروا ضدّ سنن الارتقاء فجمدوا على القديم، وأبوا أن يتهذَّبوا بما يوافق روح عصرهم، فلفظتهم الأرض، ومقتتهم السماء حتى بادوا وطُمِست لغتهم التي هي من أوسع اللغات وأغناها وأنسبها للبقاء.

لا يعيش امرؤ على الأرض ما لم ... يتـدرَّع لقـارعـات المحيـط
في جدال الحياة قد كُتِب الفــو ... ز على الأرض للقويّ النشيط

***

وجوابي على السؤال الثالث بأني أعتقد بوجوب اقتباس عناصر المدنيّة الغربيّة لا سيّما الديموقراطية، فإنها - هي وحدها - سبيل السعادة عدا أن هذا الاقتباس سبب لإسراعنا في التقدُّم، لأننا إذا تأخرنا عن اقتباسها اضطررنا أن نولِّد عناصر لتمديننا من العدم؛ وهذا لا يتمّ إلا في عصور فيكون مَشْينا إلى الأمام وئيداً في حين نشاهد الأمم الغربيّة تثب في تقدُّمها وثوباً.

ليس الذي جاء يمشي اليوم مُتَّئداً　　　بسابقٍ للأُلى من قبله ركضوا

ثم إن مباينة عناصر المدنيّة بين الشرق العربي والغرب مع الاحتكاك الذي توجبه حضارة العصر تجعل العربي صغيراً في عين الغربي الذي لا يراه نظيراً له، وهذا يضرّ بالعربي الذي يريد أن يساوي الغربي. وقد أخذنا منذ زمان غير قصير نقلِّدهم في اللبس والمأكل والمركب، فلماذا لا نتوسَّع، فنحذو حذوهم فيما هو أهم منها للحياة الاجتماعية؟ ولا أرى أن نجعل حدّاً لهذا الاقتباس الذي هو قسم من الرقي الذي ننشده حاثّين مطايا أفكارنا للوصول إليه، ولا أن يقف عند حَدّ إلا في بعض الخصوصيات كما سيأتي. غير أن هذا الاقتباس يجب أن لا يكون مرة واحدة، بل تدريجياً على قدر الاستعداد والتعلُّم، إلا أن التعجيل في إحضار هذا الاستعداد واجب، وإذا استطعنا في خلال رقيّنا أن نولِّد عنصراً جديداً للمدنية غير العناصر المُقَتَبسة فلا بأس في إضافته إلى ما نكون قد اقتبسناه:

أ- يجب أن نقتبس من النظامات السياسية الحديثة ما يوافقنا، ويلائم درجتنا اليوم من الرقيّ لأن النظامات توضع لدفع حاجات الأمم وهي تترقّى متناسبة مع رقيّها الذي تختلف درجته. والأصوَب أن تكون مبنيّة

على تجارب أهلها:

حبذا القانون إن سدَّ احتياجات الشعوب

وإذا قَصَّر فالقا نون من أدنى الخطوب

ب- يجب أن نجعل الطبيعة أنموذجاً للأدب والشعر كما جعل الغربيون، فنتحدّى الحقيقة في الآداب الجميلة جمعاء، ومنها الشعر، فلا نخرج به عن حَدّ الواقع، بل يجب أن يبقى الشعر ترجماناً لشعور قائله:

حبذا الشعر إذا كا ن مثيراً للشعور

وإذا كـــان نـزيـهاً كأغاريد الطيور

أما نفس الشعور فلا يجوز أن يكون مخالفاً لشعور العرب، فإن شعور كل أمّة خاص بها، لا يشبه شعور غيرها من الأمم - اللهم - إلا فيما كان مشتركاً بين الأمَّتين.

والذي يسعى لجعل الشاعر العربي يقول كما يقول الغربي هو كالذي يحاول أن يجعل العندليب يصيح صياح الديَكة، أو الديك يغرّد تغريد العنادل. ألم ترَ أن الشعر الإفرنجي الذي يترجَم إلى العربيّة، أو الشعر العربي المترجم إلى الإفرنجي يكون في الغالب غثّاً بارداً وإن كان المترجم متضلّعاً في اللغتين؟ وما ذلك إلا لأن الأمّة الواحدة لا تشعر شعور الثانية إلا في المشترك كما تقدَّم.

ولا أعني بما قلته أن يجمد الشعر العربي على ما هو عليه اليوم، بل يجب أن يترقّى عن منزلته، ثم يجب أن يترقّى بابتكار المعاني وتحدّي الحقيقة ومجاراة الطبيعة ومطابقة الوقت للموصوف، فيحذو في كل ذلك حذو الشعر الإفرنجي مع المحافظة على الجزالة والأساليب العربيّة

مشترطاً في كل ذلك على قائله أن لا يخرج عن الشعور العربي الذي هو روح شعره، فكلما تقدَّم الشعور تقدَّم الشعر.

ج- واقتباس العادات الاجتماعية مثل اقتباس النظامات السياسية يجب أن يكون تدريجياً، وسبب الأخذ بها هو كثرة الاحتكاك بالغربيين فلا أودّ أن يكون للعرب صَغار في عيون أمم رفعتهم قواعد اجتماعهم فاعتقدوا أن من لم يبنِ عليها يكون منحطّاً. وهذا لا يوجب علينا أن نقتبس من عاداتهم ما نتحقَّق مضرَّته، بل نتحاشى ما نراه مضرّاً كما تحاشى اليابانيون.

د- وأما التربية والتعليم فنحن في حاجة إلى اقتباسنا إياهما منهم لأنهم وصلوا إليها بتجارب طويلة استغرقت عصوراً وأحقاباً. ولو رجَّحنا أن نتقدَّم فيهما بتجاربنا لتأخَّرنا عنهم تأخُّراً بعيداً، وفاتونا أشواطاً، فلا يبقى لنا زمان للحوق بهم. وأخاف أن يمنعنا التعصُّب الأعمى والجهل البليد من أن نحذو فيهما حذو الغربيين، فيزداد البون بيننا مع الزمان، وتطول شقّة الخلاف. هم يرتقون أكثر مما هم عليه اليوم، ونحن نبقى في مكاننا واقفين، فنكون بالنسبة إليهم كالقرود، لا سمح الله، بالنسبة إلينا. وهذه حقيقة يجب أن لا يُستاء منها وإن جرحت:

كلما فكّرت في الأمــــــــــــــــر تولّاني ارتجاف

أنا من مستقبل النا   س على الناس أخاف

بغداد - جميل صدقي الزهاوي

الأستاذ وليم وريل الأميركي

1- لا أعتقد أن نهضة العرب الحاضرة قائمة الآن على أساس متين يضمن بقاءها. فهي لا تزال في رأيي فوراناً قد أثاره القلق السياسي العام والأفكار الشائعة عن الوطنية وتقرير المصير. ولست أعني بقولي هذا أن هذه النهضة وقتية لن تدوم، فقد تدبّ فيها الحياة، وتتوطّد.

2- لا أؤمن بإمكان ضمان الثقافة العربيّة ضماناً مصطنَعاً، كما لا أؤمن بجمع شتات البلاد العربيّة في وحدة مصطَنَعة. أما إذا نشأت بين العرب حضارة حديثة قويّة يشتركون فيها جميعاً فإنهم عندئذ يتحدّون بباعث من أنفسهم، ويستطيعون صَدّ الثقافة الأجنبية. وقد أوضحت في أحد أعداد «الهلال»، وأسهبت في بيان مهمّة اللغة العربيّة نحو هذه الحركة. ولا توجد الآن حضارة عربية منفصلة عن الإسلام. كما لا توجد آداب عربية حديثة ترجع في أصلها إلى الحياة الراهنة، أو تكتب بلغة الحياة الحاضرة. ولا يمكن أن توجد آداب للأمّة إلا إذا كُتِبت بلغة الأمّة.

3- ليست المسألة مسألة بحث عما إذا كان يجب على قاطني البلاد العربيّة أن يقترضوا مبادئ الحضارة الغربيّة أو لا يجب. فقد اقترضوا شيئاً كثيراً. وذلك لأن ضرورة البقاء قد حَتَّمَت عليهم وهم ينافسون الأمم التي سبقتهم في التقدُّم - أو التقدُّم المادي على الأقل- أن يقترضوا مبادئ حضارتهم. ولكن جميع الحضارات تتقارض بلا تمييز. وكثير مما هو غربي الآن قد أُخِذ من الشرق سابقاً.

وعند أي حَدّ يجب أن يقف هذا الاقتراض؟ الجواب على ذلك أن ما يمكن لحضارة ما أن تستعيره من حضارة أخرى دون تعديل أو تحوير

قليل جداً. وأن العالم ليخسر شيئاً كثيراً إذا صار العرب مسخاً أوروبياً أو أميركياً.

ولا تزال الديموقراطية رهن التجربة للآن حتى في أميركا التي كان يُظَنّ أنها البلاد التي سيُقَرَّر مصيرها فيها. ومع ذلك فالعالم بأجمعه يؤمن بالديموقراطية، وينتظر من ورائها خيراً. على أنه يجب ألا ننسى أن الديموقراطية تحتاج إلى التعليم العام الذي لم ينتشر بعد في البلاد العربيّة، كما أنها تحتاج إلى وجود «روح عامة» يظهر لنا نحن –الغربيين– أنها لم تتكوَّن بعد في الشرق. ففي الشرق يوجد ولاء للقبيلة أو للأسرة أو للدين، وفيه أيضاً وطنية في طور الابتداء والتكوين، ولكن ليس هناك روح عامة أو ميل عام لفعل الخير. ولهذا السبب لا يتيسَّر الآن إيجاد حكومة ذاتية في بلاد العرب، ولكن إذا أوجدت فيجب أن تُبنى على أساس المساواة في حقّ التصويت. وإني – وإن كنت أميركياً – أعتقد أنه يجب على الشرق أن يحتذي الديموقراطية الإنكليزية فينقل عنها. وأفضِّل هذه الديموقراطية على ديموقراطيتنا لما في هذه من خلل وارتباك في الوقت الحاضر.

ويمكن ترقية الآداب، وبخاصة الشعر، إذا حاول الكاتبون معالجة الحياة الراهنة في البلاد العربيّة، وإذا كانوا يكتبون بدون تكلُّف بأحد الأساليب المصفّاة من لغة الأمّة. فإنما ترتفع الآداب وترقى بمقدار ما في وسائل التعبير من سهولة.

أما في العادات الاجتماعية فإن للعرب ميراثاً لا ينبغي أن يُطرَح. ولكن تحرير المرأة– على الرغم من خطره في الغرب، وعلى الرغم من أنه سيكون أخطر من ذلك في الشرق إذا فوجئ به – ينبغي أن يتمّ.

أما في التربية فالشرق العربي في حاجة إلى تعليم يزرع في أبنائه التسامح دون الكفر. والعادة أن نجد الآن في أحد الجانبين إيماناً مقروناً

بالتعصُّب الأعمى. وفي الجانب الآخر نجد تعليماً مقروناً بالعداء للدين.

وفي الوقت الراهن يجب على الشرقيين أن يدرسوا الاقتصاد والعلوم الطبيعية.

(ترجمة) و. وريل

السيد مصطفى صادق الرافعي

لا ريب في أن النهضة واقعة في الأقطار العربيّة مستطيرة في أرجائها استطارة الشرر يضرم في كل جهة ناراً حامية، ويستمدّ من كل ما يتّصل به لعنصره الملتهب. ولا ريب في أن الشرق قد تفلَّتَ من أوهام السياسة وخرافاتها، وقد اختلف على الغرب بعد أن طابقه زمناً، وتابعه مدّة، وعرفه بمقدار ما بلاه، وكذبه بقدر ما صدقه، ونفر منه بقدر ما اطمأنّ إليه. ولا ريب في أن العقل الشرقي قد تطوَّر وأدرك معنى نكث العهد ونقض الشرط في السياسة الغربيّة، وعَلِم أن ذلك هو بعينه العهد والشرط في هذه السياسة مادامت المفاوضة والتعاقد بين الذئب والشاة.. ولا ريب أن الشرق يجاذب الآن مقاليده التي ألقاها، ويضرب على سلاسله التي تقيَّد بها، ويكابد الصعود والهبوط في نهضته هذه، وقد كان بلغ من إغضائه على الذلّ وقراره على الضيم وجهله وتجاهله أن أوروبا ربطت أقطاره كلها في بضعة أساطيل تجذبها جذب الكواكب للأرض.

غير أني مع هذا كله لا أسمي هذه النهضة نهضة إلا من باب المجاز والتوسُّع في العبارة والدلالة بما كان على ما يكون، فإن أسباب النهضة الصحيحة التي تطّرِد اطِّراد الزمن، وتنمو نموّ الشباب، وتندفع اندفاع العمر إلى أجل بعينه لايزال بيننا وبينها مثل هذا الموت الذي يفصل بيننا وبين سلفنا وأوَّليَّتنا. وإلا فأين الأخلاق الشرقية؟ وأين المزاج العقلي الصحيح لأمم الشرق؟ وما هذا الذي نحن فيه من روح لا شرقية ولا غربية؟ ثم أين المصلحون الذين لا يساومون بملك ولا إمارة، ولا يطلبون بالإصلاح غرضاً من أغراض الدنيا أو باطلاً من زخرفها؟ ثم أين أولئك الذين تجعلهم مبادئهم العالية القوية أول ضحاياها، وتروي منهم عرق الثرى الذي يغتذي من بقايا الأجداد لينبت منه الأحقاد؟

إن الجواب على نهضة أمّة نهضة ثابتة لا يكون من الكلام وفنونه، بل من مبدأ ثابت مستمرّ يعمل عمله في نفوس أهلها. ولن يكون هذا المبدأ كذلك إلا إذا كان قائماً على أربعة أركان: إرادة قوية، وخلق عزيز، واستهانة بالحياة، وصبغة خاصة بالأمّة.

فأما الإرادة القوية فلا تنقص الشرقيين، وإنما الفضل فيها لساسة الغرب الذين بصّرونا بأنفسنا إذ وضعونا مع الأمم الأخرى أمام مرآة واحدة، وجعلوا يقولون مع ذلك إننا غير هؤلاء، وإن هذا الإنسان الذي في المرآة غير هذا القرد الذي فيها... ولكن أين الخلق؟ وأين العزّة القومية؟ وأين العصبية الشرقية وهذه مفاسد أوروبا كلها تنصبّ في أخلاق الشرقيين كما تنصبّ أقذار مدينة كبيرة في نهر صغير عذب؟ فلا الدين بقي فينا أخلاقاً، ولا الأخلاق بقيت فينا ديناً. وأصبحت الميزة الشرقية فاسدة من كل وجوهها في الروح والذوق، ولم يعد لنا شيء يمكن أن يسمّى المدنيّة الشرقيّة. وأخذ الحمقى والضعفاء منا يحاولون في إصلاحهم أن يؤلّفوا الأمّة على خلق جديد ينتزعونه من المدنيّة الغربيّة، ولا يعلمون أن الخلق الطارئ لا يرسخ بمقدار ما يفسد من الأخلاق الراسخة. وهم يغتبطون إذا قيل لهم مثلاً إن مصر قطعة من أوروبا، ولا يعلمون ما تحت هذه الكلمة من تعطيل المدنيّة الشرقيّة والذهاب بها وإفسادها وتعريضها للذم وتسليط البلاء عليها مما لا حاجة بنا إلى التبسُّط في شرحه.

لست أقول إن نهضة الشرق العربي لا أساس لها، فإن لها أساساً من حَمِيّة الشباب، وعلم المتعلِّمين، ومن جهل أوروبا الذي كشفته الحرب. ولكن هذا كله على قوّته وكفايته في بعض الأحيان لإقامة الأحداث الكبرى واهتياج العواطف السياسية لا يحمل ثقل الزمن الممتدّ، ولا يكفي لأن يكون أساساً وطيداً يقوم عليه بناء عدّة قرون من الحضارة الشرقية العالية، بل ما أسرعه إلى الهدم والنقض لو صدمته الأساليب اللينة من الدهاء

الأوروبي على اختلافها إذا قُدِّر لأوروبا أن تفوز بأسلوبها الجديد، أسلوب استعباد الشرق بالصداقة على طريقة ادّعاء الثعلب للدجاج أنه قد حجّ، وتاب، وجاء ليصلّي بها!.

والذي أراه أن نهضة هذا الشرق العربي لا تعتبر قائمة على أساس وطيد إلا إذا نهض بها الركنان الخالدان: الدين الإسلامي، واللغة العربيّة، وما عداهما فعسى أن لا تكون له قيمة في حكم الزمن الذي لا يقطع بحكمه على شيء إلا بشاهدين من المبدأ والنهاية.

وظاهر أن أغلبية الشرق العربي ومادّته العظمى هي التي تدين بالإسلام. وما الإسلام في حقيقته إلا مجموعة أخلاق قوية ترمي إلى شدّ المجموع من كل جهة. ولعمري أني لأحسب عظماء أميركا كأنهم مسلمو التاريخ الحديث في معظم أخلاقهم لولا شيء من الفرق هو الذي لا يمنعهم أن ينحطّوا إذا هم بلغوا القمّة؛ فإن من عجائب الدنيا أن قمّة الحضارة الرفيعة هي بعينها مبدأ سقوط الأمم. وهذا عندنا هو السرّ في أن الدين الإسلامي يكره لأهله أنواع الترف والزينة والاسترخاء، ولا يرى النحت والتصوير والموسيقى والمغالاة فيها وفي الشعر إلا من المكروهات، بل قد يكون فيها ما يُحرَّم إن وُجِد سبب لتحريمه؛ إذ كانت هذه الفنون في الغالب وفي الطبيعة الإنسانية هي التي تؤدي في نهايتها إلى سقوط أخلاق الأمّة بما تستتبعه من أساليب الرفاهية والضعف المتفنِّن، وما تحدثه للنفس من فنون اللذات والإغراق فيها والاستهتار بها. وما سقطت الدولة الرومانية ولا الدولة العربيّة إلا بكأس، وامرأة، ووتر، وخيال شعري يفتن في هذه الثلاثة ويزينها.

وإذا كان لابد للأمّة في نهضتها من أن تتغيَّر فإن رجوعنا إلى الأخلاق الإسلامية الكريمة أعظم ما يصلح لنا من التغيُّر، ما نصلح به منه؛ فلقد

بَعُدَ ما بيننا وبين بعضها، وانقطع ما بيننا وبين البعض الآخر، وإذا نحن نبذنا الخمر والفجور والقمار والكذب والرياء، وإذا أنفنا من التخنُّث والتبرُّج والاستهتار بالمنكرات والمبالغة في المجون والسخف والرقاعة. وإذا أخذنا في أسباب القوة، واصطنعنا الأخلاق المتينة من الإرادة والإقدام والحَمِيّة، وإذا جعلنا لنا صبغة خاصة تميزنا من سوانا، وتدلّ على أننا أهل روح وخلق. إذا كان ذلك كله، فلعمري أيّ ضير في ذلك كله؟ وهل تلك إلا الأخلاق الإسلامية الصحيحة؟ وهل في الأرض نهضة ثابتة تقوم على غيرها؟

إن من خصائص هذا الدين الأخلاقي أنه صلب فيما لابُدّ للنفس الإنسانية منه إذا أرادت الكمال الإنساني، ولكنه مَرِنٌ فيما لابُدّ منه لأحوال الأزمنة المختلفة مما لا يأتي على أصول الأخلاق الكريمة. وليس يخفى أنه لا يغني غناء الدين شيء في نهضة الأمم الشرقية خاصة؛ فهو وحده الأصل الراسخ في الدماء والأعصاب. ومتى نهض المسلمون -وهم مادة الشرق- نهض إخوانهم في الوطن والمنفعة والعادة من أهل الملل الأخرى، واضطروا أن يجانسوهم في أغلب أخلاقهم الاجتماعية. ولا حجر على حريتهم في ذلك إلا كبعض الحجر على حرية المريض إذا أوجرته الدواء المرّ.

ولمّا كان المسلمون إخوة بنصّ دينهم، وكانت مبادئهم واحدة ومنافعهم واحدة، وكتابهم واحداً فلا جرم كان من السهل لو رجعوا إلى أخلاق دينهم، وانتبذوا ما يصدّهم عنها أن يؤلّفوا من الشرق كله دولاً متَّحدة يحسب لها الغرب حساباً ذا أرقام لا تنتهي... ولقد تمكّن الغازي مصطفى كمال - على ضعف وسائله واضطراب أموره وتألّب أعدائه - أن يوجد باتّباع هذا الأصل مجموعة دول إسلامية متَّحدة في بعض شأنها من سواحل بحر الأرخبيل إلى حدود الهند. فكيف لو قامت نهضة الشرق

كله على الأصل بعينه؟

إن هذا الشرق في حاجة إلى المبادئ والأخلاق، وهي مع ذلك كامنة فيه. ومستقبله كامن فيها، غير أنها لا تصلح في الكتب ولا في الفنون بل في الرجال القائمين عليها. فالقلوب والأدمغة هي أساس النهضة الصحيحة الثابتة. وإذا نحن تأمَّلنا هذه النهضة الراهنة وجدنا أساسها خَرِباً من جهات كثيرة، ووجدنا المكان الذي لا يملؤه إلا القلب الكبير ليس فيه إلا خيال كاتب من الكتّاب، والموضع الذي لا يسدّه إلا الرأس العظيم قد سَدَّته قطعة من صحيفة...

ولقد تنبَّأ نبيّ هذا الدين - صلى الله عليه وسلم - بهذه الحالة التي انتهى إليها الشرق العربي بإزاء الغرب، فقال لأصحابه يوماً: كيف بكم إذا اجتمع عليكم بنو الأصفر[2] اجتماع الأَكَلة على القصاع؟ فقال عمر رضي الله عنه: أَمِنْ قلّة نحن يومئذ يا رسول الله أم من كثرة؟ قال: بل من كثرة، ولكنكم غثاءٌ كغثاء السيل[3]، قد أوهن قلوبكم حبّ الدنيا.

فوهن القلوب بحبّ الدنيا على ما ينطوي في هذه العبارة من المعاني المختلفة هو علّة الشرق، ولا دواء لهذه العلّة غير الأخلاق، ولا أخلاق بغير الدين الذي هو عمادها. ألا وإن أساس النهضة قد وضع، ولكن بقيت الصخرة الكبرى، وستوضع يوماً، وهذا ما أعتقده لأن الغرب يدفع معنا هذه الصخرة ليقرّها في موضعها من الأساس وهو يحسب أنه يدفعنا نحن إلى الحفرة ليدفننا فيها.. وهذا عمى في السياسة لا يكون إلا بخذلان من الله لأمر قدَّرَه وقضاه.

(2) بنو الأصفر هم الروم ومن إليهم من الأوروبيين.

(3) الغثاء ما يحمله السيل من الهشيم ونحوه مما تحطَّم وتعفَّن ولا قيمة له ولا قوة فيه.

***

أما السؤال الثاني وهو إمكان تضامن الأقطار الشرقية وتآلفها فجوابه فيما مَرَّ، ولابد أن يتمّ ذلك، ولا عامل فيه أكبر من الأخلاق الإسلامية. أما متى يقع هذا التطور، فعلم الله غير ما نعلم، على أن من أكبر أسبابه لابدّ أن يقع في أوروبا... ولعله لا تمضي ستون سنة ينضج فيها ثلاثة أجيال حتى يُصبَغ الشرق في المصوّرات الجغرافية بألوان جديدة، فإني أرى الشرق مُتَّجهاً بضعف وبدفع الحوادث إلى الأصل الذي بيّنته آنفاً، ومتى استقرّ عليه أصبح الشرقي في روحانيته وأخلاقه الغربي المادي الذي سقطت أخلاقه، وتراخت جوانب نفسه.

ولقد فتحت إنكلترا باب الاتّحاد الإسلامي من حيث لا تشعر، وهو هو ذلك الباب الذي دخل منه اليهود إلى وطنهم المزعوم في فلسطين، ودخل منه اليونان إلى الأناضول، ودخل منه الحلفاء إلى الأستانة.

أما شأن اللغة في ذلك فلا يستهان به لأن ارتقاء العربيّة وآدابها مما يفيد أعظم الفائدة في تجانس الأمم الناطقين بها على اختلاف المذاهب والملل. والتجانس شرط لابُدّ منه في الاتحاد وفي تقريب الفكر من الفكر، والعاطفة من العاطفة فضلاً عن أن ارتقاء اللغة شرط في الرجوع إلى قوّة الدين.

***

وإني أرى أنه لا ينبغي لأهل الأقطار العربيّة أن يقتبسوا من عناصر المدنيّة الغربيّة اقتباس التقليد بل اقتباس التحقيق بعد أن يعطوا كل شيء حقّه من التمحيص، ويقلّبوه على حالتيه الشرقيّة والغربيّة؛ فإن التقليد لا يكون طبيعة إلا في الطبقات المنحطّة. وصناعة التقليد وصناعة المسخ

فرعان من أصل واحد وما قَلَّد المقلِّد بلا بحث ولا رويّة إلا أتى على شيء في نفسه من مَلَكة الابتكار، وذهب ببعض خاصِّيَّته العقليّة. على أننا لا نريد من ذلك أن لا نأخذ من القوم شيئاً، فإن الفرق بعيد بين الأخذ من المخترعات والعلوم وبين الأخذ من زخرف المدنيّة وأهواء النفس وفنون الخيال ورونق الخبيث والطيب. إذ الفكر الإنساني إنما ينتج الإنسانية كلّها، فليس هو ملكاً لأمّة دون أخرى. وما العقل القوي إلا جزء من قوّة الطبيعة.

فإن نحن أخذنا من النظامات السياسية فلنأخذ ما يتَّفق مع الأصل الراسخ في آدابنا من الشورى والحرّيّة الاجتماعية عند الحدّ الذي لا يجوز على أخلاق الأمّة، ولا يفسد مزاجها، ولا يضعف قوَّتها.

وإذا نقلنا من الأدب والشعر فلندع خرافات القوم وسخافاتهم الروائية إلى لبّ الفكر ورائع الخيال وصميم الحكمة، ولنتتبَّع طريقتهم في الاستقصاء والتحقيق وأسلوبهم في النقد والجدل، وتَأَتِّيَهم إلى النفس الإنسانية بتلك الأساليب البيانية الجميلة التي هي الحكمة بعينها.

وأما في العادات الاجتماعية فلنذكر أن الشرق شرق، والغرب غرب. وما أرى هذه الكلمة تصدق إلا في هذا المعنى وحده والقوم في نصف الأرض ونحن في نصفها الآخر، ولهم مزاج وإقليم وطبيعة وميراث من كل ذلك، ولنا ما يتَّفق وما يختلف. وإن أدلّ الأدلّة على استقلالنا أن ننسلخ من عادات القوم، فإن هذا يؤدّي -بلا ريب- إلى إبطال صفة التقليد فينا، ويحملنا على أن نتَّخذ لأنفسنا ما يلائم طبائعنا، وينمّي أذواقنا الخاصة بنا، ويطلق لنا الحرّية في الاستقلال الشخصي. ولقد كنّا سادة الدنيا قبل أن كانت هذه العادات الغربيّة التي رأينا منها ومن أثرها فينا ما أفسد رجولة رجالنا وأنوثة نسائنا على السواء. وما هؤلاء

الشبّان المساكين الذين يدعون إلى بعض هذه العادات، ويعملون على بثّها في طبقات الأمّة إلا كالذي يحسب أن أوروبا يمكن أن تدخل تحت طربوشه... ولقد غفلنا عن أننا ندعو الأوروبيين إلى أنفسنا وإلى التسلُّط على بلادنا بانتحالنا عاداتهم الاجتماعية لأنها نوع من المشاكلة بيننا وبينهم ووجه من التقريب بين جنسين يعين على اندماج أضعفها في أقواهما، ويضيّق دائرة الخلاف بينهما ثَمَّ هو، من أين اعتبرته وجدته في فائدته للأوروبيين أشبه بتليين اللقمة الصلبة تحت الأسنان القاطعة. وهل نسي الشرقيون أن لا حجّة للغرب في استعبادهم إلا أنه يريد تمدينهم؟

لقد كان غاندي الزعيم الهندي الشهير أحكم أهل الشرق جميعاً فيما فعل بعادات الأوروبيين وفي رجوعه إلى كدح اليد الوطنية ونتاج العقل الشرقي. فمتى يكون في كل قطر غاندي؟

وأما التربية والتعليم فإن القوم اهتدوا لأسرار عظيمة في هذين الأصلين فلنأخذ كل ما صح منها وما لا عنت فيه، ولنحرص الحرص كله على ما أهملوه من أمر التربية الدينية، فلا انبعاث للشرق العربي إلا بهذه التربية على أصلح وجوهها وأكمل معانيها. وحيثما قلنا «الدين الإسلامي» فإنما نريد الأخلاق التي قام بها، والقانون الذي يسيطر من هذه الأخلاق على النفس الشرقيّة. وهذا في رأينا هو كل شيء لأنه الأوَّل والآخر.

مصطفى صادق الرافعي

الأستاذ جبر ضومط

(قضية كلّيّة) «لابد لكل نهضة سياسية من أسباب تدعو إليها ووجيه يسندها تستتبع وجاهته وجاهة بقية الوجهاء، وينتفع هو وهم منها. كلٌّ بحسب وجاهته، ثم لابد من مال يُنفَق على مروَّجيها والآخذين من الدعاة بنصرتها وتعميمها إلى أن تبلغ غايتها» أهـ

نفهم نهضة الشرق العربي النهضة التي نراها أمامنا الآن، ونكاد نلمسها بأيدينا. وهي نهضة سياسية تطلب الاستقلال السياسي والتخلُّص من جور أوروبا الاقتصادي والجنسي. ونعني بالجور الجنسي ما ينظره جنس غالب إلى جنس مغلوب، وسَيِّد إلى مسود. وقد يغني عن كل ذلك أن نقول: كما ينظر الآن غربي إلى شرقي أو أجنبي، ولا سيما إنكليزي أو فرنساوي إلى وطني في العراق وسورية وحتى في نفس مصر زهرة الشرق العربي وروح النهضة الحالية وقلبها النابض.

ولابد لي قبل أن أبدأ كلامي عن هذه النهضة من تقدمة ما يأتي وهو:

أولاً- إني أصوِّر ما أصوِّره عن هذه النهضة وفقاً لما في ذهني كما فهمته من مطالعاتي وشعرت به من اختباراتي التي كانت تُتابَع شهراً بعد شهر وسنة بعد سنة منذ صرت أتأثّر من المحيط الذي حولي وأؤثِّر فيه إلى الآن. ولا شكّ أن ما كنت أفهمه من مطالعاتي واختباراتي ومن المحيط حولي والحوادث التي تتعاقب فيه لم يبقَ على حالة واحدة، بل كثيراً ما كان يتولّاه النقض والإبرام؛فتارة تنسخ معلوماتي اللاحقة معلوماتي السابقة، وتارة تؤيِّدها وبالعكس. وكثيراً ما كنت أعدل عن فهم مضى إلى فهمٍ استجَدَّ، ثم أعود فأرجع عن المستجدّ المعدول إليه إلىً القديم

عنه. وبعبارة أخرى: كثيراً ما تضاربت أفكاري، وتناقضت مفهوماتي وأحكامي، ونَسَخَ سابقها لاحقها، ولاحقها سابقها قبل أن استقرَّت على الشكل الذي أصوِّره الآن، وهو شكل في ذهني لم أرجع فيه وأنا أصوِّره إلى تاريخ مكتوب يمكنني الرجوع إليه كحجّة والاستشهاد به، بل لا أضمن أن توافق أفكاري ومفهوماتي الآن في مقالتي هذه كل أو معظم أفكاري ومفهوماتي وكتاباتي التي سبقت. ولذلك فمن ينتقدني في نفسه أو في مجلّة فلينتقد مفهوميَّتي نفسها لا زمان وقوعها ولا المكان الذي وقعت فيه: فيما إذا أشرت إلى زمان أو مكان.

ثانياً- لا يسعني الحال أن أستوفي الكلام على هذه النهضة في الأقطار العربيّة الثلاثة، أعني العراق، والشام ومصر. ولذلك أكتفي بما أعرفه عنها إجمالاً في سورية، وربما أشرت إشارة إليها في العراق وفلسطين، ثم بحسب ما في الإمكان، وما تحتمله صفحات «الهلال» أشرح حال النهضة في مصر.

النهضة في سورية

كان قبل هذه النهضة نهضة سبقتها في أيام مدحت باشا. ولكلٍّ أسبابها. أما أسباب النهضة أيام مدحت باشا فكانت لتفكيك عرى الاتحاد العثماني. ومن أشهر ما نُظِم في أثنائها قصيدة:

دع مجلس الغيد الأوانس وهوى لواحظها النواعس

وكان من ورائها إنكلترا. وأما مدحت باشا فكان فزّاعة بين أيدي ساستها الذين كانوا يحاولون بها الوصول إلى السودان والاستيلاء عليه، أو -على الأقل- دقّ وتد جحى فيه إلى أن يحين لهم الوقت المناسب مع الأيام. لكن مع ما بذله مدحت باشا لأجل ترويجها لم تكن البلاد في استعداد

لها. ولم يكن أيضاً قد حصل التفاهم بين الإنكليز والفرنساويين عليها، فتلاشى أمرها بعزله ونقله إلى أزمير، ثم أخذ من هناك تحت الحفظ بتهمة اشتراكه في مقتل المرحوم عبدالعزيز، وأرسل مكانه المرحوم حمدي باشا والياً على الشام، فلم يحتج هذا الوزير الأمين لدولته إلى أكثر من الأمر بحبس واحد من الشبان الذين بالغوا بإثارة الخواطر من غير ما تقية ولا تكتُّم، فاشتملت عليه القنصلية الإنكليزية في دمشق، وتوسَّلَت لإخراجه من السجن، وأرسلته بصورة مُبعَد - كما أظن - إلى القاهرة. وهناك تعيَّنَ على أثر وصوله ترجماناً لجيش الاحتلال. هذا خلاصة ما بقي في ذهني من أمر المرحوم شاكر بك الخوري. ولا أكفل ما أثّرت فيه الأيام من التكيُّفات الخفيّة، ولكنها لم تكن شديدة ولا كثيرة كما أؤكِّد للقارئ العزيز.

على أن هذه النهضة لم تذهب بلا فائدة للدافعين إليها، أعني إنكلترا. وأثرها - على ما أعتقد وكما فهمت من كل حوادثها وما تلاها حتى الآن - هو أن الاستانة تساهلت فأذنت بإرسال الحملة الإنكليزية لتخليص غوردون باشا، وكان هذا بذهابه إلى السودان قد هيّأ كلّ الوسائل لتمكين الدراويش من الإحاطة به في الخرطوم، وقطع خط الرجعة عليه وعلى كل من كانوا هناك. وعادت تلك الحملة عن الخرطوم، وكل السودان حتى وادي حلفا يغلي غلياناً بالثورة التي انتهت أخيراً بالشكل الذي نعلمه بدقّ «وتد جحى» أولاً، ثم بتجريد الحملة الإنكليزية المصرية بعد مضي سنين بقيادة الجنرال كتشنر باشاً المشهور وتحت رايتين إنكليزية ومصرية معاً على نفقة مصر كما أظن.

هذه هي النهضة الأولى في سورية وكانت نهضة سياسية عربية، لكن ضدّ الأتراك. ثم كانت النهضة العربيّة قبل الحرب العظمى العالمية وقبيل أو في أثناء الحرب البلقانية. وهذه أيضاً كانت ضدّ الأتراك، ثم جاءت

النهضة الحالية وهي نهضة عربية شرقية تطلب الاستقلال السياسي، والاقتصادي، والجنسي.

أسباب النهضة الحاليّة

مَنْ منّا لا يتمنّى أن تكون هذه النهضة قائمة على أساس وطيد يضمن لها البقاء؟ بل من منا لا يتألّم من مجرَّد الفَرَض أنها فوران وقتي لا يلبث أن يخمد؟ لكن هل تسوِّغ لنا عواطفنا أن نكذِّب أنفسنا، ونغفل عما كان يمرّ بنا منذ أيام قلائل؟ البارحة كنّا (أي أهل سورية وفلسطين) نستقبل الحلفاء بإطلاق البارود وزلاغيط النساء وقرع الأجراس في قبب الكنائس وأذان المؤذِّنين في الجوامع، ونحمد الله أن خلَّصَنا من العثمانية وظلم الظلّام القاسطين الغاشمين. بالأمس أسرع عليتنا في بيروت وأكابر أعياننا بأوتوموبيلاتهم يتلقّون الفاتحين إلى عكا أو صور. ويهولني أن أقول ماذا كان يقال في اجتماعات كثيرة عند وصول الجيش الفاتح، وماذا سبق به الطرّاش ينفثونه في آذان الكثيرين من الأهلين، أعني في آذان الأعيان والكبراء وفي آذان أهل النباهة وذوي اللسن من الأدباء والخطباء والكتّاب إلخ إلخ. وكيف كانت تتكيَّف الأفكار، وتتقلَّب الخواطر بين أسبوع، وأسبوع، وأحياناً بين يوم وآخر. وإلى الآن لم نستقرّ على شيء ثبت بعد، بل لا نعرف كلّ ما نريده تمام المعرفة.

نعم نشاهد نهضة سياسية - وإن كانت تلبس أحياناً لباس نهضة أدبية اجتماعية - فما سببها؟ خابت آمالنا بدول الحلفاء وخيبة الآمال ليست بسهلة. رأينا أنفسنا في أمور كثيرة كنا نحبّ التخلُّص منها لا نزال حيث كنّا، بل -في سرِّنا- قد نقول إنّا رجعنا إلى الوراء. كنّا عصبة واحدة أو لي قوة، فإذا بنا جماعات متفرِّقة ضعيفة. كنّا أولاً ولاية واحدة أو ولايتين فإذا بنا دول سبع. يا لمرارة ما شعرنا ونشعر به! وأمرُّنا نفساً

التجار وأهل الصناعة والزراعة، بل أصبح يشعر بالمرارة حتى العَمَلة ومتعاطو الأسباب التافهة. وَدَعْ عنك الأدباء والكتّاب فإنهم بدأوا يشعرون ببوار حرفتهم الشريفة. لكن الأَوْلى بنا أن لا نحرِّكهم فإنهم- فيما أعتقد -أبعد الناس عن الاعتراف بمرارة النفس التي عَمَّ الشعور بها، أو كاد يعمّ، كما أنهم أبعدنا عن الاعتراف بخيبة آمالنا وقد خابت. ومعنى كل ما قلته قد يُفهَم منه أن نهضتنا العربيّة الشرقيّة الحاليّة أشبه بفوران وقتي إن لم تكن فوراناً، ولكني لا أقول ذلك لأني يؤلمني حتى مُجَرَّد خطور هذا الخاطر في بالي.

دعوني إذن أقول إن نهضتنا هذه هي نهضة حقيقية. نعم وقد بدأت تكون كذلك بإذنه تعالى. ولا أقول ذلك مُجَرَّد رياء إرضاءً لعواطفي وعواطف مواطني، بل هناك ما يسوِّغ لي قولي هذا، ويصحِّح حكمي وهو أن شدّة مرارة أنفسنا نبَّهت أنفسنا لدرجة من الشدّة لا يزول أثرها بسهولة، فأصبح يجوز لنا أن نعتمد على تكيُّفات الوجود التي قد تأتينا بما يحقِّق آمالنا من حيث لا نحتسب. على أني -مع الأسف- أقول إني لا أرى في سورية وجيهاً تستتبع وجاهته ما سواها من الوجاهات، ويقرّ له بقيّة الوجهاء برياسته، ثم هو يطمع بالانتفاع من هذه النهضة وعنده من المال ما ينفق عليها إلى أن تستحكم في النفوس، وتبلغ درجة لا يُستطاع قلعها منها ولا تحويل الأفكار عنها. لو كنت أرى مثل هذه الوجاهة ما توقَّفت ولا تردَّدت في حكمي عن أصالة هذه النهضة وثباتها إلى أن يبلغ أهلها ما يريدون. نعم ليس أمامي الآن ما أفزع إليه فأؤمِّل -من ثَمَّ- لأجله باستمرارها وازدياد عدد الناهضين بها وشدّة تضامنهم أيضاً إلا شدة مرارة نفوسنا بما كان من خيبة آمالنا وانكشاف مقاصد الحلفاء بعض الانكشاف لنا. ولا أقول كل الانكشاف، فإني

كنت أخاف ولا أزال أخاف من سذاجتنا التي تصدِّق كل ما تسمع من خوالب العبارات، وتنخدع بها.

***

يكفي ما ذكرته عن سورية ولبنان. وأترك الأمر في العراق، وفلسطين، وشرقي الأردن إلى عارف بأحوال هذه البلدان العربيّة من بينها، فإن الابن لا يتّهم كما يتّهم غيره. وغاية ما أقوله أو أستطيع أقوله إني أخاف على هذه البلدان العربيّة أن تصبح ملعباً للسياسة الغربيّة. وهنا الخوف كل الخوف، فإني أرى من وراء ستار السياسة اللاعبة على لوحة فلسطين وأرض الفراتين إلى شطوط البحر الأسود شمالاً وبحر قزوين شمالاً شرقياً قوماً سَحَرة بل أسحر السَّحَرة السياسيّين الذين يستطيعون بسحرهم أن يفرِّقوا بين المرء وزوجه، وبين الأم وبنيها.

النهضة في وادي النيل

إن أول نهضة عربية شرقية - حسب الظاهر - كانت نهضة المرحوم إسماعيل باشا الخديوي الكبير، وما اتَّصل بأذيالها من الحركة العرابية، ولكنها كانت لتفكيك عرى الوحدة العثمانية. وقد رتَّب معظم فصولها الساسة الإنكليزيون الماهرون وإليك البيان:

لا آخذ القارئ الآن إلى أيام نابوليون بونابرت القائد العظيم وموقعة أبي قير، ولا إلى أيام محمد علي باشا وما كان في أيامه الأولى إلى أن قضى على المماليك، وأصبح والي مصر لا ينازعه منازع فإن السياستين الإنكليزية والفرنساوية كانتا حينئذ، بل بقيتا إلى ما بعد الحملة المصرية الإبراهيمية بل إلى سنة سبعين على طرفي نقيض إلا في فترة قصيرة تغلب فيها دهاء بالمرستون على نابوليون الثالث حتى استجرَّه إلى

محاربة الروس سنة 1856.

بعد سنة السبعين بدأت السياسة الإنكليزية تتقرَّب من السياسة الفرنساوية، وكأنما الفرنساويون انتبهوا بعد اندحارهم أمام الألمان إلى أن السياسة النابوليونية القائمة على معاندة إنكلترا ومزاحمة نفوذها في مصر سياسة عقيمة، فاتَّفقت السياستان على الأمر المشترك بينهما وهو تفكيك عرى الاتحاد العثماني: تقنع كلّ منهما بحصَّتها، وتعدلان عن المزاحمة بينهما.

ورأت الدولتان في المرحوم إسماعيل باشا الرجل القوي الجسور الطموح المفتوح اليد، بل - بالحريّ - المبذِّر الوسيلة العظمى لهذه الغاية فأعانتاه على طموحه، فنال في سنة 1866 حظاً شريفاً مؤذناً بالإرث الصريح في عائلته. وفي السنة التي تلتها نال لقب خديوي، وهو أرفع رتب وزراء الدولة.

ولم يقف اندفاعه عند هذا الحَدّ فزار الأستانة سنة 1873، وقوبل فيها بأعظم الترحاب، ونال من التفات الحضرة الشاهانية المرحوم عبدالعزيز ما لم ينله أحد قبله من أهل بيته. ثم لم يلبث أن عاد إلى مصر حتى جاءه الفرمان الشاهاني يخوِّله كل الحقوق المعطاة لرتبة الخديوية وهي حقوق الوراثة لأول أبنائه والاستقلال بالأحكام الإدارية، وإقامة المعاهدات مع الدول الأجنبية، واستقراض القروض... إلخ.

ويظهر من مطالعة هذا الفرمان أن الخديوية المصرية أصبحت به مستقلّة فعلاً كاستقلال أية دولة وضعت يدك عليها من دول أوروبا حاشا الدول الستّ العظام. نعم أصبحت بالنسبة إلى العثمانية الضعيفة مستقلّة تمام الاستقلال، وانفكَّت عروة ارتباطها بالأستانة إلى الدرجة التي كان يريدها القوم.

بدأ المرحوم إسماعيل باشا بعد هذا الفرمان بالإسراف في نفقاته، وبالاستقراض لها ولمشروعاته التي كان كثير منها لخير البلاد ولظهور لمحة عليها من لمحات أُبَّهة المدنيّة الأوروبيّة، كما أن منها ما كان لإظهار أُبَّهة الخديوية وعزّة الملك، حتى إذا أكمل دوره في التمثيل الذي أراده القوم، وكانت الحرب الروسية العثمانية قد انتهت وأمضيت معاهدة برلين التي أعطيت فيها الهرسك والبشناق لأوستريا، وقبرص لإنكلترا أولاً، ووقِّع الاتّفاق السرّي بين فرنسا وإنكلترا على أن تحتلّ الأولى تونس، والثانية مصر وفقاً لبروغرام تقاليدهما القديم.

لمّا تَمَّ كل ذلك، وجاء الوقت لأن تستلم إنكلترا حصَّتها. ولمّا كانت تعلم أن دون استلامها - وإسماعيل العظيم على سرير الخديوية - خرط القتاد. في الليلة الظلماء أقيل المرحوم إسماعيل باشا، ونُصِّب مكانه ابنه المرحوم المغفور له محمد توفيق باشا.

نعم أُنزِل إسماعيل العظيم عن سريره بمصادقة الأستانة التي كان انتهض عليها، وظنّ أنه فاز بما نهض لأجله. والحقيقة أن الفوز كان لمن كانوا يدفعونه إلى ما وافق هوى في نفسه، وظاهرُه مجدٌ لمصر واستقلال له ولها عن تسلُّط الأستانة وتدخُّلها في شؤون بلاد النيل المبارك تدخُّلاً يعوقها عن السير في معارج الفلاح، أو يؤخِّرها إلى أزمنة عن بلوغ قمّة المجد الخليق بها.

لم يكن المرحوم إسماعيل باشا مغفَّلاً، ولكن دهاء الساسة الغربيين، ولا سيما ساسة إنكلترا القديرة، أعمق من أن نكتنهه نحن -الشرقيين- ولا سيّما مَنْ غلب عليهم أو فيهم الدم العربي، أو الذين كَيَّفَهم المحيط المصري الشرقي أثناء بعض أجيال إلى ما يناسبه.

النهضة العرابية

احتلّت فرنسا بلاد تونس، ووجدت المسوِّغ لاحتلالها في تأديب قبائل الخمير التي كانت تعيث فساداً - كما ادُّعِيَ - على حدود الأملاك الفرنساوية، وبقي على إنكلترا - وفقاً لتفاهمها مع فرنسا - أن تجد مسوِّغاً شرعياً ظاهراً لاحتلال القُطر المصري فظهرت الحركة العرابية، وكان ظاهرها لإزالة الاستبداد العسكري التركي بأبناء مصر وإعطائهم حقوقهم الخليقة بهم بحيث يصيرون هم والأتراك والشراكسة ومَنْ إليهم على مستوى واحد. وفي الوقت نفسه لإزالة الامتيازات الأجنبية والتخلُّص من استبداد أبناء الرعويات الأوروبية التي كانت قد بلغت في فظاعتها إلى ما لا يُطاق.

ما كان أحلى ظاهر تلك النهضة، وما أخلبها للُّب! ولذلك نالت عطف معظم الأهلين على اختلاف طبقاتهم في مدة أقصر من يوم المسرة ولقاء الأصحاب، ولكن يا للأسف! فإن الذين خدعوا المرحوم إسماعيل باشا الكبير لا يمتنع عليهم أن يخدعوا عرابي باشا وبضعة من الضباط رفاقه.

فلما أتمّ هذا دوره، وبلغ الغاية التي يريدون أن تقع أرسلوا بوارجهم، وكان ما كان من احتلالهم القُطر المصري، كما احتلّ الفرنساويون القُطر التونسي، لكنهم لم يقفوا عند هذا الحدّ لأن من (بروغرامهم) احتلال السودان أيضاً بل احتلال هذا القُطر كان ولا يزال عندهم أهم من احتلال مصر. بقي عليهم إذن أن يدبروا الوسائل لاحتلال ذلك القُطر كما دبَّروها لاحتلال الإسكندرية والقاهرة ولابد قبل الاحتلال من التفاهم بينهم وبين الفرنساويين، لأن عين أولئك كانت متوجِّهة إلى مراكش كتوجُّه عين هؤلاء إلى السودان.

ومن الدهاء العجيب، بل قل من حسن السياسة التي يجب على الشرقي

العربي أو التركي أن يتعلّم مثلها، أو يفطن لها هو أن المحتالين استعانوا بالأستانة على خلع عرابي، كما استعانوا بها على خلع المرحوم إسماعيل باشا، وأظهروه (أي عرابي) أخيراً بمظهر عاصٍ على خديويه وخليفته العظيم عبدالحميد غفر الله لهم أجمعين ولنا معهم.

النهضة الكامليّة

نهضة المرحوم مصطفى كامل كانت وسطاً بين النهضة العرابية مُسَبَّبة عنها وبين نهضتنا هذه الحالية المباركة وسبباً لها. والفرق بين ما تقدَّمناها وبينها أن النهضة الأولى التي كان قطبها إسماعيل، والثانية التي كان قطبها عرابي كانتا لِفَكّ عرى الاتحاد العثماني ومضة من ومضات عقد رباط ذلك الاتّحاد. وكان العاملون فيها من وراء الستار هم الإنكليز والفرنساويون بالدرجة الأولى، ومن سواهما بالدرجة الثانية. وأما هذه فالعاملون فيها كانوا وما زالوا من الوطنيين.

انقضت معركة التلّ الكبير، وأُبْعِد المرحوم عرابي باشا إلى جزيرة سيلان، وأُبْعِد غيره كثيرون إلى منافٍ غيرها، واستلم زمام الأمر والنهي في الجيش المصري ضبّاط من الإنكليز بدلاً من الأتراك والشراكسة الغاشمين العاسفين كما كانوا يزعمون أو يدَّعون، وبدأ أهل النهضة الوطنيون العرابيون يتوقَّعون أن يتحقَّق لهم ما كانوا يحلمون به، ويسعون إليه .ولعلهم كانوا بمكان من السذاجة - كما كنا - حتى كانوا يصدِّقون أن القوم غايتهم -في رنّة العود في خدمة الحق والإنسانية وأنصاف الأقوام المظلومين والإحسان إلى الفقراء والمساكين، لافي ربّة العود- الاستئثار بالسلطة واستنضاض المنافع واحتياز الأموال.

والظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عــفَّــة فلَـعَلَّـه لا يـظـلــم

مَرَّت على الضباط العرابيّين بضع سنين ينتظرون فيها أن يتحقَّق لهم ما كانوا يؤنسون به، فإذا بهم بعد أن كانوا يأمرون مَنْ تحتهم من الأتراك والشراكسة، ويأتمرون بأمر مَنْ فوقهم أصبحوا لا يجسرون أن يأمروا وإن نفراً بسيطاً من الإنكليز، فكيف بالأونباشي أو السرجنت؟

ثم جلس عباس حلمي على أريكة الخديوية، وكان شاباً قويّ البنية قويّ الإرادة قويّ التدبير المالي، وهو يظنّ أنه أمير البلاد وله الأمر والنهي، أو قل معظم الأمر والنهي فيها من أقصاها إلى أقصاها، فما أسرع ما خابت آماله حين رأى يَدَ كرومر من فوق يده، يداً يغطيها مخامل الحرير الناعمة، ومن وراء تلك المخامل حسك الحديد القاسية تحزّ اللحم، وتنفذ في العظام!

تولّد في نفس عباس كره شديد على نسبة شدة شكيمته ومرارة نفسه، ومرارة النفس هذه كان - ولا شك - يشاركه فيها كلّ أمراء البيت الخديوي، وكل أعيان البلاد وكبراؤهم، وكلّ أمراء العسكرية على نسبة ما تحيف من وجاهتهم ونفوذهم. ومَنْ لم تتحيَّف اليد الحديدية من كرامته ونفوذ جاهه في كلّ القُطر المصري؟

وأحسَّ المغفور له السلطان عبدالحميد بما فعلته السياستان البريطانية والفرنساوية، وما ترميان إليه في المستقبل فَمَدَّ كلتا يديه: اليمنى إلى الإمبراطور غليوم، واليسرى إلى عباس حلمي باشا بما يشجِّعه على مناهضة السياسة الإنكليزية وإظهار كرهه لها.

وما ذاك بخلاً بالنفوس عن القنا ولكن صدم الشرّ بالشرّ أحزم

أشرنا في أول هذه المقالة إلى أن المال والوجاهة من أشدّ ما يسندان النهضات السياسية والقائمين على نشرها وتمكّنها في النفوس، وقد

تكفَّل بذلك البيت الخديوي وأكابر أعيان البلاد. فأين الرجال؟ بل أين الرجل الذي ولدته الأيام في مصر لحمل هذه الأمانة والقيام بتلك النهضة التي هي أمنية كلّ أمّة ومطمح كلّ شعب له ماض مجيد غلب على أمره، واستبدَّ به؟

وُلِد لحمل هذه الأمانة والقيام بنشرها والدعوة إليها المرحوم مصطفى كامل باشا. فليحيَ ذكر مصطفى كامل، وليُخَلَّد اسم هذا الوطني الكبير في قلب كل مصري وناهض عربي شرقي، ولْيُكْتَب اسمه واسم كل من لبّى دعوته من الأدباء والعلماء والأعيان والصلحاء والذين كانوا من ورائها يسندونها بمالهم وجاههم من الأمراء والوزراء. لِيُكْتَب اسم كل واحد من هؤلاء في سجلّ مفاخر أبطال الأمم.

فذلكة

إن نهضة المرحوم إسماعيل باشا كانت مقدِّمة للنهضة العرابية، ولابد لها – أي للنهضة العرابية – منها؛ وهذه بدورها جاءت مترتِّبة على ما قبلها، وعلّة للنهضة بعدها، أعني النهضة الكامليّة الخالدة.

هذه النهضة الوطنية لكسر نير تفوُّق الأجنبي ومحو سواد الذلّ والمهانة عن محيّا كلّ أبناء وادي النيل بعثت النفس المصرية من سباتها العميق، وزعزعت ذلك الاعتقاد الراسخ الذي كان في النفوس بانحطاط الهمم وصِغَر النفوس وميزة الغربي بالفطرة على الشرقي، وابتعثت معها نهضة أدبية تكاد مصر لم تشاهد مثلها منذ الأيام الأولى إلى الآن، ويكفي الإشارة إلى الأدب الجمّ العالي الذي ظهر في خُطَب المرحوم مصطفى كامل باشا وفي مقالاته السياسية ومؤلّفاته العديدة، وفي مقالات «المؤيد» وكتاباته، وفي كتابة كل الجرائد والمجلّات المصرية الآن على اختلاف نزعاتها ومواضيعها والغاية التي ترمي إليها.

وأدباء القُطر المصري، بل أدباء كلّ الأقطار العربيّة يعرفون نفاسة ما ظهر من المؤلّفات والتراجم في أثناء الثلاثين سنة الأخيرة. وما أراني بعيداً عن الحقيقة فيما لو قلت إن الآداب العربيّة في مصر عادت بهم بالأدباء المصريين كلهم لا أخص فئة دون فئة ولا مذهباً دون مذهب ولا قديمي الوطنية دون مستجدِّيها إلى ما كانت عليه في أعظم زهوها أي ما بين القرين الثالث والسادس من الهجرة العربيّة.

وانبعث أيضاً مع النهضة الأدبية احترام كلّي للنفس، فمات ذلك الاعتقاد المحيط بالنفس المذلّ لها والذي كان أكبر مسبِّب لخلودها واستكانتها إلى الرقّ المعنوي الذي هو أشدّ إيلاماً وضرراً في البلاد من الرقّ السياسي، فأصبح المصري لا يقرّ بالميزة للأجنبي كما كان (وكنا ولا يزال في غير وادي النيل) قبلاً، وأصبح شائعاً عند خاصَّتهم وعامَّتهم وديناً مصدَّقاً أن طبيبنا لا ينقص عن طبيبهم، ولا يجوز أن ينقص، وصيدليّنا لا ينبغي ولا يجوز أن ينقص عن صيدليِّهم، وكذلك كاتبنا، وأديبنا، وعالِمُنا ومعلِّمنا، وصانعنا، وتاجرنا إلخ إلخ. وبكلمة أخرى استفاق فيهم احترام النفس واعتقاد الكفاءة بالذات. وكما تشعر النفس كذلك تكُن.

كل هذا ما يسوِّغ لي الحكم أن النهضة المصرية الوطنية الحالية أصبحت نهضة متمكِّنة في النفس يصعب إطفاء جذوتها المقدّسة من نفوس القائمين بها مهما قاومهم المقاومون. وسيبذل الغرب ودول الغرب كلّ ما في وسعهم لمقاومة روح هذه النهضة، ولا سيّما أهل السياسة وملوك الأموال الذين فاق استبدادهم بالإنسانية كلّ استبداد سبق للكهّان والملوك والأمراء والأعيان. وبفوز النهضة المصرية ينهض الشرق عن آخره كثيراً أو قليلاً. كل قطر على حسب استعداده.

وفي نفسي تفاصيل كثيرة في شأن ما يدعم هذه النهضة من الوسائل. لا أستطيع بيانه الآن. وربما إلى أجل غير مُسَمّى. ولا أظن تسعني فيه صفحات «الهلال» العزيزة، فالمعذرة من القرّاء الأفاضل، والسلام.

جبر ضومط

الأستاذ معروف الرصافي

1- لا أدري أيّة نهضة تعنون في الأقطار العربيّة. أنهضة سياسية أم نهضة أدبية؟ فإن أردتم الأولى فلا أعلم أن هنالك نهضة سياسية سوى أني أسمع أن في مصر شيئاً من ذلك. ولكوني اعتدت أن لا أعوِّل على السماع في معرفة الحقائق. لا أعلم حقيقة ما يجري في مصر اليوم من الحركة السياسية... وأما في غير مصر من البلاد العربيّة فلم أرَ ما يجوز أن يسمّى باسم النهضة. وأما الذي جرى هنالك في أثناء الحرب العامة وبعدها فلم يكن صادراً عن دافع سياسي أو شعور وطني قومي، وإنما كان صادراً عن يد أجنبية أوجدته لمصلحتها، واستعملته لمنفعتها... وكيف يمكن حدوث نهضة سياسية عامة حقيقية في بلاد استولى على أهلها الجمود الديني، واختلفت عقائدهم، وتضاربت نِحَلُهم، وهم لم يتمسَّكوا من أمور دينهم إلا بما يطيل مسافة الخلف بينهم، وانحطّت أخلاقهم إلى حيث جعلوا الدين بأيديهم آلة لضرب بعضهم بعضاً في سبيل أهوائهم المتخالفة.

2- إن أردتم «بإمكان اتحاد الأقطار العربيّة» الإمكان العام - اللهم - فنعم، إذ أكثر المستحيلات ممكن بهذا الإمكان. وإن أردتم به الإمكان الخاص أو بالفعل فالجواب هو هذا: أما في الوقت الحاضر فلا، إذ لا شكّ أن المراد بتضامن هذه الأقطار إنما هو تضامنها في أمور السياسة العامة. وذلك لا يتمّ إلا بعد استقلال البلاد سياسياً. ودون استقلالها خرط القتاد.

من المعلوم أن الأكثرية في البلاد العربيّة إنما هي في جانب المسلمين. وقد ذكرت لكم حالتهم اليوم في جواب السؤال الأول. فحالتهم هذه هي

القتاد في قولي و«دون استقلالها خرط القتاد». ومن هنا تعلم الطريق الموصل إلى الغاية المقصودة من استقلال البلاد سياسياً. وتوضيحاً لذلك أقول:

إن المسلمين اليوم قبل كل شيء في أشدّ الحاجة إلى إصلاح ديني عام، وذلك لا يكون إلا بعد أخذ القوم قسطهم من التربية والتعليم حتى ينشأ فيهم جيل مستعدّ لقبول الإصلاح. أما طرق التربية والتعليم في هذا العصر فمعلومة لا حاجة إلى بيانها. فإن قلت إن الأخذ بأسباب التربية والتعليم لا يتيسَّر إلا لمن كان مالك أمره في السياسة. والقوم ليسوا كذلك، فكيف يكون؟ قلت هذا غير مُسَلِّم. ألا ترى اليهود كيف أخذوا بتلك الأسباب في الغرب والشرق وهم غير مالكي أمرهم في السياسة.

فإذا تَمّ للقوم إصلاحهم الديني من هذا الطريق فقد تمَّ اتّحادهم الذي هو أكبر عامل في بلوغ غايتهم. وحينئذ لابدّ من حصول التضامن الذي عنه تسألون.

أما اللغة فلا ينكر كونها عاملاً في هذا الأمر، لكنها عامل ضعيف أدبي لا يلبث أن يتداعى أمام الماديّات. وكم رأينا أناساً من الناطقين بالضاد لا يحصى عددهم يخدمون الأجانب ضدّ أبناء جلدتهم ولغتهم لقاء رواتب يتقاضونها من الأجنبي، فلم تمنعهم رابطة اللغة من ذلك لفساد أخلاقهم، ولأنهم لم يروا من التربية والتعليم ما يوجِّههم إلى وجهة معلومة في حياتهم الوطنية.

3- إن السؤال الثالث لعجيب عندي. إنني أعتقد أن الأديان والشرائع والكتب السماوية والأرضية والحكومات ونظاماتها السياسية كلها أمور تنزع إلى غاية واحدة وهي سعادة الإنسان على قدر الإمكان في هذه الحياة الدنيا، فكل ما اقتضاه الوصول إلى هذه الغاية من اقتباس عناصر المدنيّة

الغربيّة في جميع الأمور التي ذكرتموها لا يجوز -في رأيي- أن يحدّ بحدّ غير تلك الغاية نفسها. فإن كانت آداب العربي ومشاربه الخاصة وعاداته الاجتماعية ونظاماتها السياسية الحاضرة من ضروريات سعادته في الحياة ومن مقوماتها وقف عندها، وإلا وجب عليه تركها إلى ما هو أرقى منها وأنفع بدون حدّ يحدّ. ويكفيه في محافظة جنسيته العربيّة تمسّكه بلغته فقط التي بها وحدها يستطيع أن يمتاز عن غيره من الأقوام الأخرى..

معروف الرصافي

فتـــاوى

كبار الكتّاب والأدباء

توطئة: سعيد بنكراد

بين يـدي القارئ كتاب عن اللغة والتمدُّن عامّة، وعـن حـال اللغة العربية في العشرينيات من القرن الماضي تحديداً. كتاب تحدّث فيه مجموعة من كبار الأدباء والنقّاد والمفكّرين مـن مشارب متنوعة، عن قدرة اللغة العربية أو عجزها على الاستجابة لتحدّيات العصر العلـمية والفـكـرية عـمـوماً، وتحدّثوا عن قدرتها على التقاط التحـوُّلات التي لحـقت نمط العـيـش.



www.aldohamagazine.com